الرثاء في شعر مروان بن أبي حفصة الأكبر

عرض وتحليل وموازنة

الدكتـــور

محمد على سيد أحمد داود

الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد

باكلية

موضـــوعات البحث

١ ـــ تقديم •

٢ ـــ « مرثيته لمعن وماله فى الرثاء » عرض وتحليل وموازنة •

٣ ـــ مقطعات أخرى فى الرثاء للشاعر •

٤ ـــ بين المدح والرثاء •

٥ ـــ المبالغات فى شعر مروان ورثائه •

٦ ـــ التكرار فى شعره ودلالته •

٧ ـــ خاتمة •

٨ ـــ الهوامش •

تقـــديم

حفل الشعر العربى بكثير من الغرر فى كل أغراضه ، كما اشتهر كثير من شعراء العرب باجـادته فى فن أو أكثر ، وكثـيرا ما جلبت الشهرة لصاحبها عوامل الحياة الهانئة والشقاوة البالغة ، وقد تقلبـه شهرته على الجوانب المختلفة .

— ومروان بن أبى حفصه الأكبر واحد من هؤلاء الشعراء،فقد عاش فى ظلال معن بن زائدة الشيبانى يمدحه وينال عطاءه الوفير،وظل يتربع على موائد الهناء وجوانب اللين ، فكانت حياة معن مصدر خير كثير لمروان بن أبى حفصة لذا كان مصرع معن ذا أثر كبير على حياة مروان فيجتر أحزانه ، ويقول فيه مرثيته التى هى أطول قصـيدة فى ديوانه ، وقد ضم فيها من المبالغات والمعانى التى أوغرت صدر بعض أولى الجاه ، والقوة والسلطان عليه زمنا حتى استطاع بدهـائه أن يحطم حواجز الصدود ، ويتحقق له ما كان يتمنى من سخى العطاء .

والشاعر هو مروان بن أبى حفصة الأكبر تلك هى شهرته ، أما نسبه،فهو مروان بن سليمان بن يحى بن يزيد الذى يكنى بأبى حفصة، وسواء كان يزيد من موالى عثمان بن عفان فقد أسلم على يد عثمان — رضى الله عنه — ووهبه لمروان بن الحكم وشهد مع مولاه يوم الدار وأبلى بلاء حسنا ، ولما جرح مولاه مروان حمله يزيد وعنى به وداواه فأعتقه ونزل له عن أم ولد يقال لها سكر ، فأنجبت له بنتا سـماها حفصة وكنى بها ، وحـين ولى مروان بن الحكم المدينة لمعـاوية بن أبى سفيان جعل يزيدا على خراجهـا وتزوج امرأة من بنى حنيفـة وضعت له يحيى وأبناء آخرين ، وتزوج يحيى بنت زياد بن هوذة من

بنى أنف الناقة فأنجبت له ابنه سليمان ورزق سليمان بابنه مـــروان سنة خمس ومائة للهجرة(١) •

ومروان بن أبى حفصة من أسرة عريقة فى قول الشـــعر توارث أبناؤها نظمه كابرا عن كابر وتناسق منهم عشرة على الولاة مذكورون بالشعر أنشدوا الخلفاء وأخذوا الجوائز ••وهو من الشعراء المخضرمين الذين عاشوا فى الدولة الأموية والدولة العباسية •• قال ، الشعر وهو غلام لم يبلغ العشرين ، وانه وفد على الوليد بن يزيد ١٢٥/١٢٦هـ مع الحسين بن مطير الأسدى(٢) •

وأما أخباره فى العصر العباسى فكثير ، وهى تدل على أنه لم يقصد أبا العباس عبد الله بن محمد السفاح ١٣٢/١٣٦هـ ، ولا أبا جعفـــر المنصور ١٣٦/١٥٨هـ وان كان فكر فى الوفود عليه غير أن المنية عاجلته فلم يمدحه غير انه أخذ فى هذه الفـــترة يتردد على عمال المنصـــورة وخاصة السرى بن عبد الله بن الحارث بن العباس والى مكة ٤١٢/١٤٦ ومعن بن زائدة والى اليمن الذى استغرق فى مدحه ونال من جوائزه وصلاته ما لا يحصى •

ووفد على المهدى ١٥٨/١٦٩ ومدحه ونال هباته الغامرة وتحول بعده الى مديح الهـــادى ١٦٩/ ١٩ هـ ثم مـــدح هارون الرشـــيد ١٧٠/١٩٣هـ ، ويقال انهم جميعـــا راجعوه فى مديحـــه لمعن بن زائدة الشيبانى ورثائه له وتحاموه فى أول الأمـــر ، ولم يلبس أن تمكن من التقرب اليهم والحظوة عندهم مستوليا على أفئدتهم بدفـــاعه عنهم

---

(١) انظر ديوان مروان جمع وتحقيق د• حسين عطوان ص٧ ومابعدها
(٢) الديوان ص ٧ بشىء من التصرف •

واحتجاجه لهم حتى كان رسمهم أن يعطوه بكل بيت يمدحهم به ألف درهم ، وتجاوز مدحه البرامكة وزراء الرشيد وبخاصة يحى بن خالد البرمكى وولديه الفضل وجعفرا ، ونال عطاءهم الجزل .

— والشدة تعصبه للعباسيين ولطول انقطاعه اليهم وانتصاره لهم، وتعريضه بالعلويين وسيلة لحقوقهم فى الخلافة غاظ الآخرين واحنقهم عليه ، مما حمل بعض الشيعة المتطرفين على اغتياله(٣) وقد اختلف فى سنة موته أهى ١٣٩هـ كما يرجح المرزبانى(٤) . أم ١٨٢ هـ وهو ما اتفق عليه القدماء .

— وأما أهم موضوعات شعره فهو المديح ولكنه فيه لم يضف جديدا بل اكتفى بالموروث من المعانى فى مدحه للخلفاء العباسيين حيث مدحهم بعراقة الأصل والجود الفياض ، والشدة والسداد فى الرأى والسهر على مصالح الرعية والعدل والاحتجاج لأحقيتهم فى الخلافة . ويقل عنده الهجاء والوصف(٥) .

وهو من مدرسة زهير(٦) ، ويقول ابن المعتز فى طبقاته(٧) انه كان من المجيدين المحكمين للشعر .

ولا يختلف شكل القصيدة عنده عمن سبقه من الشعراء ، ومعانيه مكرورة ومعاده ، وهو دون مسلم بن الوليد فى تنقيح الألفاظ وتدقيق المعانى وحسن الألفاظ ووقوع التشبيهات ، ودون بشار بن برد فى

---

(٣) الديوان ص ٩٠ .
(٤) انظر معجم الشعراء ٣١٨ ، وتاريخ آداب اللغة العربية جـ ٢ ص ٣٨١ / ٣٨٢ .
(٥) انظر ديوانه ٤٥ ، ٦٣ ، ٧٣ .
(٦) فحوله الشعراء الأصمعى ٤٨ .

الأبيات النادرة السائرة فكأنه طبقة بينهما وليس بمقصر شديد دونهما ولا منحط عنهما بعيدا(٨) •

بينما كان اسحاق بن ابراهيم الموصلى وأبو عمرو الشيبانى يفضلانه على بشار ومسلم(٩) فى حين كان ابن الأعرابى(١٠) يختم الشعر العربى به •

— وأطول قصائد ديوانه مرثيته لمعن بن زائدة الشيبانى تلك المرثية التى أسعدته حينا وجلبت له الشقاء حينا •

وأما معن فهو كما ترجم صفى الدين الحلى « معن بن زئدة الشيبانى أبو الوليد كان ، فى أيام الأمويين منقطعا الى يزيد بن عمر ابن هبيرة أمير العراقين ، فلما انتقلت ، الدولة الى بنى العباس أبلى معن بلاء حسنا فما قتل يزيد خاف معن من المنصور فاستتر عنه وجرى له مدة استتاره غرائب ، ثم أمنه المنصور وأكرمه وصار من خواصه وولاة اليمن سنة ١٤٢هـ ثم ولى سجستان وبها قتل غدرا سنة ١٥١ هـ وكان معن جوادا جزل العطاء كثير المعروف ممدحا مقصودا شجاعا له أشعار جيدة أكثرها فى الشجاعة منها عدة مقاطع فى كتاب البارع ورثاء أبى حفصة فيه مشهور »(١١) •

ورجل شأنه كذلك لا نعجب حين نقرأ فيه هذه المرثية مروان بن أبى حفصة وأطول قصائد ديوانه والتى جمعت من المصور ما جمعت مما جعل جعفر بن يحى البرمكى يثيبه عليها ويعطيه ضعف ما كان يعطيه معن لو كان حيا وسمع مثلها •

---

(٧) طبقات ابن المعتز ٤٥ •

(٨،٩) أمالى الشريف المرتضى ٥١٨/١ •

(١٠) الأغانى ٤٣/٩ •

(١١) انظر شرح الكافية البديعية لصفى الدين الحلى ١٧٣ تحقيق د• نشيب نشاوى ١٤٠٢هـ — ١٩٨٢م • دمشق •

لمحة عن الرثاء في الشعر العربى

اذا كان مجال الشعر هو الشعور سواء أثار الشاعر هذا الشعور فى تجربة ذاتية محضة كشف فيها عن جوانب النفس أو نفذ من خلال تجربته الذاتية الى مسائل الكون أو مشكلة من مشاكل المجتمع تتراءى من ثنايا شعوره واحساسه فان فى فن الرثاء معينا ثرا وميدانا رحبا لظهور هذا الشعور ، اذ يتراءى من خلاله ما يمكن أن يعكسه هذا الشعور الفياض فيض من هذا الشعور ، معبرا عن الصدق الذى يلمس موزعا فى الجوانب الأساسية بين الشكل والمضمون وحينئذ يصير قيمة ترف بثرائها الى كل ذى حس مرهف فيتجاذب الى بؤرة تأثيرها الأديب والقارىء والسامع ليأخذ كل منها بقدر ما يروى ظمأته موضحة أو مضيفة من القيم الى كل هؤلاء بقدر ما وهب •

— وانما يجعلها على هذا النحو ما استمدته من روح الشاعر وفيض وجدانه ، وحينئذ ، تضيف القصيدة الشعرية برهانا آخر على أن الشعر هو الخلق الأدبى الذى يتجاوب ، مع الطبائع،وعندئذ تتحقق للشعر أسمى معانيه،وهو أنه فيض من الهام يخاطب به الوجدان والوجدان ونشوة من فيض العاطفة تتناجى به القلوب ، وتتسامى بها العقول ، وبذلك لا تكون الكلمات فى الشعر تعنى حروفه بل يكون لها براح ومراح يتعدى حدود الأصوات ومعادلها اللغوى كما تنطقها الألسنة ، وتتجلى تلاءقا وتناظما وتبادل أحاسيس فى ابداع شيق •

— والرثاء فن شعرى له مقوماته ، وقد ظهر منذ بداية الشعر الجاهلى ، وهو فى نشأته وثيق الصلة بالحماسة فقد كان « الشعراء الجاهليون يرثون أبطالهم الذين سقطوا صرعى فى حومات الوغى،وهم بذلك يثيرون قبائلهم لتأخذ بثأرهم ، ومعنى هذا أن الرثاء بدأ فى

الشعر الجاهلى بداية حماسية مرتبطة بالدور الذى كان الشاعر يقوم به فى المجتمع القبلى(١) ٠

ــ وأجود الرثاء يوضحه لنا ما جاء فى البيان والتبيين للجاحظ ٠ « قال الباهلى قيل لأعرابى : ما بال المراثى أجود أشعاركم ؟ قال : « لأننا نقول وأكبادنا تحترق »(٢) وأول ما يذكرنا بهذا القول رثاء الخنساء لأخيها صخر ، ومن ذلك قولها(٣) :

يا عين بكى على صخر لأشجانى
وهاجس فى ضمير القلب خــزان

انى ذكرت ندى صــخر فهيجنى
ذكر الحبيب على سقم وأحــزان

فأبكى أخاك لأيتــام أضربهــا
ريب الزمان وكل الضر يغشانى

وقولها(٤) :

انى أرقت فبت الليــل ساهرة
كأنما كحلت عينى بعــوار ،

أرعى النجوم وما كلفت رعيتها
وتارة اتغشى فضــل أطمارى

---

(١) العصر الجاهلى د٠ شوقى ضيف ٢٠٧ ٠
(٢) البيان والتبيين للجاحظ ٢/١٧٠ دار الكتب العلمية بيروت ٠
(٣) شرح ديوان الخنساء ١٣٩ منشورات دار مكتبة الحياة ٠
(٤) السابق ٦١ ٠

وقد سمعت فلم أبهج به خبـــرا
مخبرا قام ينمى رجع أخبـــار

وتعد الخنساء رائدة فى هذا الفن حتى ان الكثير ممن قالوا الرثاء بعدها قد تأثروا بها لما فى شعرها من عمق العاطفة وصـــدق التفجع ، ومع كثرة ما قالت فى هذا الموضوع حتى ضم هذا الرثاء ديوانها الذى يكاد يخلص له فانك لا تقرأ أى بيت أو قصـــيدة فيه الا وتحس انك أمام جديد عميق مؤثر •

ويظل الشـــعر العربى فياضا بالرثاء الصـــادق ينساب ممزوجا بعبارات الحزن والآهات ، الملتاعة تسجله أصابع الوفاء على منـــوال الخلود عاكسا الفيض الشـــعورى بحسرات يدرها وقع الفقـــد وأثر الصدمة •

ـــ وتظل المراثى مختلفة فى طرقها وأثرها وجوانبها المختلفة عمقا وأثر وطولا وقصرا وخلودا وانتشارا حتى بليت أمم وأمم وتعـــاقبت الليالى والأيام وظلت قصائد من هذه المراثى وكأنها وليدة اليوم فى صداها وأثرها •

واذا كان الرثاء قد بدأ وثيق الصـــلة بالحماسة فانه تطور بعـــد ذلك وانفصل عن الحماسة وتجاوز المصلحة القومية للقبيلة ، وانتظـم ضمن موضوعات الشعر الجاهلى فدار حول تصوير فجيعة الفقد وندب الميت وتأبين وتعداد مآثره ، سواء من قتل منهم أو من مـــات حنف أنفه ، كما كان يندرج فيه الدعوة الى الصبر والتأسى •

ـــ وقد تكون الفاجعة نبعا ثرا القول الشعر والشهرة فيه،فمتمم ابن نويرة لم يعرف عنه قول الشعر قبل مقتل مالك ، لكنه راح ينساب فى رثاء أخيه بقصيدته الشهيرة والتى يقول فيها(٥) :

---

(٥) المفضليات ٢٦٥ رقم القصيدة ٦٧ •

لعمرى وما دهرى بتأبين مـــالك
ولا جزع مما أصاب فأوجعـــا

لبيب أعان اللب منه ســـــماحة
خصيب اذا ما راكب الجدب أسرعا

••• وعشنا بخير فى الحياة وقبلنا
أصاب المنايا رهط كسرى وتبعـــا

وكنا كند مانى جذيمة حقبـــــة
من الدهر ــ حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنـــا كأنى ومـــــالكا
لطـــول اجتماع لم نبت ليلة معا

••• فلا فرحا ان كنت يوما بغبطة
ولا جزعا ان ناب دهر فأوجعـــا

ــ ومن أقوى الرثاء تعبير وتأثيرا وأقدره على تصوير الأحزان والآلام ما قيل فى جراحات القلوب (رثاء الأبناء) « ومن ذلك ما نجده عن أبى ذؤيب الهذلى الذى فقد أبناءه الخمسة فى عام واحـــد(٦) • وكذلك عند ابن الرومى فى رثائه لابنه محمد وقصيدته فى هذا المجال شهيرة ذائعة(٧) •

وانداحت دائرة الرثاء ، ولم يعد قصرا على الرجال من الشعراء فقد عرف كثير من النساء اللاتى أجدن هذا الفن فى الجـــاهلية ونبغن

---

(٦) المفضليات ٤١٩ ورقم المفضلية ١٢٦ •
(٧) راجع القصيدة فى ديوان ابن الرومى •

فيه كالخنساء وجليله بنت مؤة زوج كليب وائل وغيرهن مما دفع لويس شيخو الى جمع شعرهن فى كتابه المسمى مراثى شواعر العرب •

ـــ وفى هذا الفن أيضا وعند بعض الشعراء يكون الرثاء مصدر نبع فياض لنظرات الحكمة النافذة ، فقد تطفو الذهنية على اللجـــة ويضمر الشاعر الانفعال ليستحيل الى أفكار يقرر فيها ما تراءى له من حقائق تتصل بالوجود من كون وطبيعة وبشر ••• الخ

كما عند لبيد بن ربيعة العامرى اذ نراه ينفث من معاناته الصماء القاتمة عبر المظاهر ويترسم ملامح الألم والعبث فى مطالع الأحيـــاء ويرمز الى المضمر من خلال المظهر مما لم يتيسر للخنساء والمهلهل •• وتجربة الرثاء كانت تتداح فى نفسه وتتسع حتى تشمل العالم كله •• وهو لم يكن مثـــل المهلهل والخنســـاء يؤلب على الثأر ويحفـــز على الإبادة(٨) ، فـــ (موت أخيه خلف فى نفسه ثأرا على القدر •• اذ لم يقتله قاتل ولم تتحشد عليه قبيله ، القدر انقض عليه عبر الصاعقة وكأنه عقاب لجريرة ما ارتكبها أخوه(٩) •

ـــ واذا أردت على ذلك دليلا فاقرأ قوله فى رثائه لأربد :

بلينـــا وما تبلى النجوم الطوالع
وتبقى الجبال بعدنا والمصـــانع
•• وقد كنت فى أكناف جاره مضنة
ففـــارقنى جار بأربد نابـــع
فلا جزع ان فرق الدهر بيننـــا
وكل فتى يوما به الدهر فاجـــع

---

(٨) النقد الأدبى لايليا الحاوى ١/٤٢٩ •
(٩) النقد الأدبى ايليا الحاوى ١/٤٣٠ •

فلا أنا يأتينى طـــريف بفرحة
ولا أنا مما أحدث الدهر جـازع

وما الناس الا كالديار وأهلهـــا
بها يوم حـــلوها وغدوا بلاقـــع

وما المرء الا كالشهاب وضـــوئه
يحور رمادا بعد اذ هو ســـاطع

•• وما المال والأهلون الا ودائع
ولابـــد يوما أن ترد الودائـــع

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى
ولا زاجرات الطير ما دلله صانع

ـــ سلوهن ان كذبتموتى متى الفتى
يذوق المنايا أو متى الغيث نازل(١٠)

ـــ ومن الشعراء القدامى من كان يطلق لنظره العنان لينفذ فى الطبيعة وما يكون فيها من تغيرات ليعود حافلا بنظرات ثاقبة من خلال رؤيته لقوى الطبيعة وما يحدث لها ، وكيف أن هذه القوى على ما هى عليه من عظمة لا تمتنع أمام التغير والفناء والمـــوت وينفذ من هـــذه الأجواء الى ادخال العزاء الى نفسه(١١) •

ـــ كما كان البعض من هؤلاء الشعراء ـــ ومنهم لبيد والخنســـاء ومتم بن نويره يجد بعض العزاء فى ضرب الأمثال بمن سلف من الملوك

---

(١٠) ديوان لبيد بن ربيعـــة تحقيق وتقـــديم احســـان عباس من اصدارات وزارة الارشاد والانباء فى الكويت ١٦٨/١٧٢ •
(١١) انظر دراسات فى الشعر الجاهلى ونصوص منه ١٧٥

والأمراء والعظماء والذين لم تغن عنهم سطوتهم أو هيبتهم من الموت شيئا ، كما لا يفيد الاعتصام بالجبال وغيرها من قوى الطبيعة ، وكيف وهى لا تمنع نفسها من ذلك ، وفى هذه الناحـــية ضربوا المثل بهـــذه الوعول المعصـــم ، اذ لم يحجبها اعتصامها بقمم الجبـــال عن البلى والفناء •

ـــ ولم يتوقف أمر التطور عند هذاالحد بل أخذت يد الابداع تنسج فيه الجديد تلو الجديد فى معانيه وأساليبه وآثاره ، وراحت نظرات النقد تتعقب مراحل التطور موضحة جوانب الابداع فيهـــا ، فوضحت ما أثار الاعجاب ، ومن ذلك على سبيل المثال ما أشار اليـــه النقاد من براعة الاستهلال أو جودة المطلع ، فقد ذكروا أن من أحسن قصائد الرثاء مطلعا فى الشعر العربى القديم قصيدة أوس بن حجر فى غضالة بن كلدة الأسدى ، والتى يقول فى أولها :

أيتهـــا النفس أجملى جـــزعا
ان الذى تحـــــذرين قد وقعـــا

ان الذى جمع السماحة والنجـــ
ـــدة والحزم والقوى جمعـــا

الألمعى الذى يظن لك الظـــــ
ن كأن قـــد رأى وقد ســـــمعا

والمخلف المتـــلف المـــرزأ لم
يمتع بضعف ولم يمت طبعا(١٢)

---

(١٢) يمتع : يصاب ، طبعا : الطبع : أسوأ الطمع •

أودى وهل تنفع الاشـــاحة من
شيء لمن قد يحـــاول البدعا (١٣)

فقد أتى بمطلع لم يسبق اليه ، ومرجع ذلك الطبع السليم والنظرة الثاقبة الى الأمور وايحاء الفطرة السوية •

وظلمت التجارب واثراء الفطرة السليمة وعمق النظرات فى غرض الرثاء نضيف الى مخزونه رصيدا جديدا من الحكمة المحكمة ، والمعانى السامية والنظرات الصائبة التى أثرت فى هذا الغرض وأفاضت فيـــه سلوا وائتساء •

ـــ ويمكننا من خلال اللمحة السالفة أن نشير الى ما انطوى تحت مضمون الرثاء فى الأدب العربى من :

ـــ ندب الميت وتأبينه تأبينا حارا ، وتعداد مآثره ، وبيان ما خلفه الفقد من أحزان وهموم ، وبكاء ما ضاع بضياعه من مآثر وخلال •

ـــ الحديث عن أثر الفقد على الطبيعة وفئات الناس الذين كان لهم عونا ومنقذا ، من البؤس والهوان ، ويتناول كذلك الحديث عن دوره فى الحفاظ على الحمى وكيف كان وما تغير بعده من أمور •

واممانا فى اظهار الأثر الذى خلفه الفقد على الشاعر يتحدث عن استنكار أقرب الناس اليه لما آل أمره ، فيعمد الى عقد محاورة بينه وبين من استنكر عليه ذلك يفصح فيها عن لوعته وأحـــزانه كما يصرح فيها عما انتهت اليه حالته من حرقة يحترق وحده بلهيبها •

---

(١٣) ديوان أوس بن حجر ٥٥ ، والاشاحة : الحذر والجد فى طلب الشيء •

ـــ وحين يصير الراثى نهبا للأحزان تعبث به حرقة الفقد يحاول أن يقف بذاته على بعض وسائل التسلى التى تهيأت له كتذكر الفائتين من قيـــاصرة وأكاسرة وغيرهما ممن يضرب المثـــل فى طـــول العيش أو كثرة الملك •

ـــ ويكثر أن يبكى الشـــاعر ولى نعمته وينعطف به المســـير الى مسارب شتى ، وقد يتجاوز الحد ويجنح الى المبالغة أحيانا كأن يدعى ذهاب العطاء بعده وضياع القوافى هباء •• الخ •

ـــ ومن المراثى التى كانت مخاضا لعطايا سخية مشفوعة بالتكريم وصلات كبرى فى حياة الفقيد للراثى ما قاله مروان بن أبى حفصة فى رثاء معن بن زائدة الشيبانى والى اليمن وأهم ما قيل فى ذلك قصيدته اللامية ، فهى أطول قصائد الديوان ، رثى فيها الشاعر وأبّنه تأبينا حارا ، وجال فيها حول خلاله تفصيد واحصاء ، فقد أغرق العطاء فى حياته على مروان ولا سيما فى صدر حياته الأدبية ، وظل عطاؤه يزداد يوما بعد آخر ، ولهذا جاءت قصيدته اللامية وقد ضمت من المعـــانى ما كان سببا فى تحامل ، بعض الخلفاء فى الدولة العباسية عليه حتى قال بعضهم له : أنت قلت فى مرثيك :

وقلنـــا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا

وكل ما ورد له فى ديوانه من رثاء بعد ذلك لا يتجاوز مقطوعة واحدة ويضاف الى ذلك ، قصيدة غير خالصة النسب اليه •

ـــ فأين يقف مروان بن أبى حفصة فى دائرة الرثاء العربى حين رثى معنا ؟ وعند أى مرتقى بلغ؟ هذا وما يتعلق به ما تحمله الصفحات التـــالية •

ـ لقد سار الشاعر فى مرثيته مسـيرة عكست ما كان لرثائه من خصائص تعبيرية وفكرية ووجدانية فتناول فيها أفكارا جامعة وألوانا وصورا من شخصية المرثى وان كان قد جمع فيها من المبالغة والتعميم ما كان سببا فى توجيه اللوم الكثير اليه على نحو ما ذكرنا ووصد أبواب العطاء فى وجهه أحيانا •

ولقد اختار مروان بـ نأبى حفصة مطلع مرثيته •

مضى لسبيله معن وأبقى مكارم لن تبيد ولن تنالا

وبهذا المطلع الهادى النبرة البعيـدة عن الحدة يبدأ قصـيدته (مرثيته) متحدثا عن جانبين متضادين هما الفناء والبقاء مشـير الى أن الفناء سبيل كل انسان ، فالقدر محتوم وذلك واقع ملموس والذاهب اليه ذاهب الى سبيله ، وهذا نهاية كل حى ، ولعله يقصد الى الاشارة الى أن بقاء الذكر أمر يتمكن المرء فى صنعه ، ولكنه غير ميسور على كل انسان وبذلك جمع بين جانبين سببا له الحزن والهم ، لقد فقد معنا ففقد بذلك امتداد ما بقى له من عطاء •

ـ وتلك مسيرة سرعان ما يصطلى بلظاها فيعود متحدثا عن البقاء فمعن وان قضى لسـبيله فقد أبقى مكارم تخلد ذكراه ، وهى مكارم مستحيلة المنال لغير معن ••

ولكن حين يذكر المضىء والبقـاء يلتذع بالمضى ولا يكاد يسـليه ما أبقـاه معن من مكارم ، يقصـدها الشاعر فى حديثه على أى وجه سواء أكان يقصد • ما حققه الشـاعر فى ظلال معن من ذيوع صيت وغنى ، وانما الذى يسليه هو وجود من يرتجى منه سد الفراغ الذى أحدثه فقد معن •

ـواذا كان الوفاء لمعن أثر من أثار العيش فى ظلال نعمتـه فان

طبيعة الشعراء الذين ينتحون هـذا المنحى — وان اختلفت درجاتهم وتفاوته ومسائلهم فى ذلك — هى حب العطاء ، لذا فان قوة العاطفه وصدقها ودرجتها والتماس العزاء فى هذا المطلع كل هذا لن يصل بحال الى ما ارتقى اليه قول الخنساء :

مضى وسنمضى على أثره كذاك لكل فتى مصرع(١٤)

فامنية اللقاء بالفقيد ماثلة عند الخنســاء ولا يضارعها أى شىء أخره وفى المضى على الطريق عزاء وتسلية حيث يكون اللقاء المرجى . فالتجربة عند الخنساء تبدى للقارىء ، لأول وهله انها مصابة فى نفسها فبعضها قد ذهب وسيذهب البعض الباقى مما يوحى بحرارة اللــوعة وتأججها •

لكن بيت مروان بن أبى حفصة ركز على ذكر المكارم التى أصاب منها مروان ما أصاب فى حياة معن : واذا كان هذا هو الذى دفعه الى الحديث السابق فهو مصدر ألم لأنه زايله ، فالاحساس اذا ضــياع هنف قد يتحقق عند غيره بينما الاحساس عند الخنساء يتركز فى ضياع الذات لذا حمل بينها قانون الاحياء ممزوجا بالحزن والألم ••

والمتأمل بيت مروان يجد فى ظلاله النفعيــة ، لأن فى البيت نعى معن ونعى عطائه الذى فسرته الأبيات . ومن هنا كانت المبالغة فى قوله « لن تنالا » تعكس سمات تعبيراته المعنوية التى تجعل اللفظة ذات ألوان متعددة ••• يمكن حملها الى ما يسمو بالمرثى • أو ما يشير الى حجم عطاياه التى لم تعد منتظرة من غير آنئذ •••ومن هذا المنطــلق يمكننا القول بأن العزاء عند الشاعر يتجلى فيما أبقاه معن من ، مكارم للشاعر ولغيره من صلات وعطايا وحسن الســيرة ، وطيب الأحــدوثة

---

(١٤) ديوان الخنساء ٩٥ •

وأما المضى على أثره والالتقاء به فذلك ما لا يشغل به الشاعر نفسه •

وهذا المطلع حرى بأن يفسح المجال أمام الشاعر ليتجول فى مجالات متعددة بما يحمل ومن تعميم وتكثير وتعظيم ونفى تأبيـــدى لامكان ابادتها ونيلها •

ومن هذا البدء راح الشاعر ينطلق متحدثا عن الأثر الذى أحدثه الفقد على الكون وفجيعة الشعر فيه ، وبعد أن نفس عما يختلج فى ذاته من حسرات على انقطاع هذا الامتداد للماضى الحافل بالعطاء ، انه ماض يظن الشاعر أنه لن يتكرر ، ويعكس ذلك على الطبيعة بشىء من المبالغة فيبدأ باظهار ما انعكس على الطبيعة ••• فالشمس أظلمت والثغور عطلت والعراق أصابها الاظلام والاختلال ، وارتجف جانبـــا الشام وكادت كل أرض من تهامه أن تزول ، وخيم الخشوع على البلاد•

يسوق ذلك فى الأبيات الآتية :

٢ ــ كأن الشمس يوم أصيب معن
من الاظلام ملبسة جـــــلالا ٢

٣ ــ هو الجبل الذى كانت تزار
تهد من العدو به الجبـــالا ٧

٤ ــ وعطلت الثغور لفقـــد معن
وقد يروى به الأسل النهالا ٦

٥ ــ وأظلمت العراق وأورثتها
مصيبته المجللة اختالا ٣

٦ ــ وظل الشام يرجف جانباه
لركن العز حين وهى فمالا ٤

٧ ــ وكادت من تهامة كل أرض
ومن نجد تزول غداة زالا ٥

٨ ــ فان يعل البلاد له خشــوع
فقد كانت تطول به اختيالا ٨

وهذه البداية ــ فى تصورى ــ لا تعكس أى أثر على الملتاع الذى مس الحزن دواخله مع أنها تحمل عبارات لها ما لها من طنين يمكن أن يعكس الجانب الظاهرى من جزع وهلع •• انها عبارات كلغة الصحافة، فهى أحيانا تصور الأمور بطريقة قد تبتعــد عن الحقيقة غير أن لهــا صدى ورنينا يكاد يؤثر على من يمر عليها قارئا العبارات متأملا الصور والأشكال •

ــ والأبيات المتحدث عنها لا يربط بينها سوى أنها تتــلاقى فى محيط الرثاء ، كما يمكن أن يجمع بينها عنوان واحد هو «الخطب الفادح وأثره على الكون » وأرى أنه من الأفضــل لترابط المعانى وتناسـبها وتسلسلها او أنها أخذت الترتيب الموجود على الهــامش الأيسر من الأبيات على النحو السابق يصير ترتيبها كالتالى :

كأن الشمس يوم أصــــيب معن
من الأظــــلام ملبســة جــلالا

وأظلمت العــراق وأورثتهــا
مصــــيبته المجللة اختــــلالا

وظــل الشــام يرجف جــانباه
لركن العــــز حــين وهى غمالا

وكــــادت من تهــامة كل أرض
ومن نجــــد تزول غــداة زالا

وعطلت الثغـــور لفقـــد معن
وقد يروى بها الاســـل النهالا

هو الجبـــل الذى كانت تـــزار
تهـــد من العـــدو به الجبالا

فان يعـــل البلاد له خشـــوع
فقـــد كانت تطول به اختيـــالا

وفى نهاية الفكرة يذكرنا بيته الأخير :

فان يعل البلاد له خشوع فقد كانت تطول به اختيالا

ببيت الشنفرى أم :

فان تبتئس بالشنفرى أم قسطل لما اغتبطت بالشنفرى مثل أطوق

وهذا ما قدمه فى الأبيـــات الأولى من قصيدته معلنا عن الفقـــد والمضى والبقاء والأثر الذى ترتب على فقده على النحو السابق •

وينتقل الى الأبيات التالية والتى تحمل فكرة ثابتة ويرتقى الأداء ويظهـــر ذلك فى ترابط الأبيـــات ، ولعل للفـــكر أثره ـــ كما سنوضح ان شاء الله ـــ اذ تنتظم الأبيات فى سمط الفكرة يقول فى بداية هـــذه الفكـــرة :

أصاب الموت يوم أصاب معنا من الأحياء أكرمهم فعالا

ـــ واذا كانت لحمة الوصل بين أبيات الفكرة الأولى مهلهلة ـــ فان هذا البيت يوحى بما سيذكره الشاعر من أبيات تتم فكرته وتتصـــل بها اتصالا يسميه علماء البلاغة تفصيل بعد اجمال •

فالشاعر وصف الفقيد بأنه أكرم الأحياء فعالا متخذا من التعميم والاطلاق طريقا الى توضيح مبلغ الصفات المذكورة عنده ، اذ نرى أن كل بيت يتحدث عن جانب من جوانب الكرم مع وضوح الاطلاق،وأن الفقيد كان يمثل فى صفاته قمما لا يبارى فيها وكأن الشاعر راح يدلل على ما ذكره فى مطلع المرثية •

ويتبع الشاعر فى رثائه لمعن وتعداد صفاته أسلوبا واضحا فهو لايصرح ولكنه يكتفى بذكر لازمها ليكون دليلا واضحا عليها:فالناس كلهم ظلوا عيالا لمعن الى أن زار حفرته ولم يرحل طالب عرف الى غيره،وقد كان يحمل كل ثقل عن رعيته جميعا ويسبقه فضل نائله سؤال الطالبين، وتلك صفة تنم عن انسانية جمة : نقرأ له قوله :

وكان النـــاس كلـــهم لمعن
الـــى أن زار حفرته عيـــالا

ولم يك طـــالب للعرف ينـــوى
الى غير ابن زائدة ارتحـــالا

مضى من كان يحمل كل ثقـــل
ويسبق فضل نائله الســـؤالا

ويكرر ذكره لهذه الصفات فى أثواب متعددة فقد كان معن يمثـل القمة فى كل جوانب الحياة الكريمة • فما عمد الوفود لمثله ولا حطوا بمثل ساحته رحالا ، ولا بلغت ألف ذوى العطايا من عطاياه كمـا أن حياصفه كانت مترعة بالمعروف وكل هذه الصفات تعكس مبلغ كرمـه ولطفه وحلمه وكل ما ذكره الشاعر من أبيات تتضمن المعانى الســابقة مما يندرج تحت البيت الثانى هو بمثابة الفكرية الكلية أو العنوان حين ذكر أن الموت يوم أصابه أصاب أكرم الأحياء فعالا ، يقول :

وما عمد الوفود لمثـــل معن
ولا حطوا بســـاحته الرحـــالا

ولا بلغت أكـــف ذوى العطـــايا
يميتـــا من يديه ولا شـــمالا

ولا كانت تجـــف له حيـــاض
من المعـــروف مترعة ســـجالا

وحين ينعى الشاعر هذه الصفات التى سبق أن أوضح درجتهـــا فى الأبيات السابقة نراه يتخذ منهجا يقوم على التقرير والتأكيد الذى جعل من وسائله التكرار فى الاسناد وغيره فنراه مثلا يستخدم النفى ست مرات متخذا من النفى والاثبات طريقا من طرق التأكيد والتقرير، كما كرر ذكر معن تسع مرات منها أربع صراحة وخمس مرات بضميره.

ومع كل هذا الحشد والتكرار والتأكيد فى نعيه صفة الكرم التى بلغت عند الفقيد مبلغا يجارى لم يبلغ لمدى الذى وصلت اليه الخنساء فى رثائها الصخر فقد ذكرته معددة صفاته التى توقد جمرات اللوعة عندها على فقده مع جمعته أبياتها من دقة فى الجانب الفنى يتجـــلى ذلك فى الألفاظ والأساليب والتصريع من جهة وفى التكثيف المائل فى الجوانب المعنوية من جهة أخرى ، وفوق ذلك فهى تبكى أخاها الذى استطاعت ببراعتها أن تعدد له تسع عشرة صفة فى خمسة أبيات ضاعت بضياعه تقول :

نحـــار راغيـــة ملجاء طاغية
فكاك عانيـــة للعظم جبـــار

وأبكى أخاك لا يتام وأرمـــلة
وأبكى أخاك لحق الضيف والجار

جم فواصله ، تتدى أناملـــه
كالبدر يجلو ولا يخفى على السارى

رداد عـــارية ، فكاك عانيـــة
كضيغم باســـل للقرن هصار

وحين نستطلع رثاء معن من خلال ما تقدم نجده يصلح لأن يكون رثاء لعهد مضى ، رثاء لحياة هانئة وعطاء سخى فاته .

رثاء يستخدم فيه الشاعر الإطلاق والتأكيد مستعينا بالوســائل التى تظهر نعيه لهذه الصفات التى بلغت عنده منتهاها لذا لم تحمل فكرته جدة وماذا عن قوله انه أكرم الأحياء ، وهو يكفى الناس كلهم ، وهو حمال كل الأثقال ، وأكثر من هذا فقد ساق بعض أفكاره موصلا الى مراده بأكثر من واسطة كوصفه الحياض — مثلا — فقد نفى جفافها ثم وصفها بأنها مترعة وكأنه كان يشعر أن بعض ما ذكره من صـــفات فى حاجة الى تأكيد ، مما جعل النزعة التقريرية ضافية على أبياته :

وحين نطالع بيت مروان بن أبى حفصة :

مضى من كان يحمل كل ثقل ويسبق فضل نائله السؤالا

ونسترجع النظر فى التراث الشعرى تتراءى لنا من درره ما يمكن أن يكون مضمون البيت ، السابق من ظلاله تقرأ لزهير بن أبى سلمى فى مدح هرم(١٥) :

تراه اذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله

(★) ديوان الخنساء ص : ٥١ .
(١٥) ديوان زهير بن أبى سلمى للأعلم الشنتمرى مطبعة التوفيق الأدبية ٣١ .

وهو أجود معنى فقد روعى فيه الجانب النفسى فضلا عن بيان فرحة الأخذ كما يمثل فى الأذهان قول وكرم المعطى فى أريحيته التى تحب أن تظل البشاشة كل سائل :

زياد الأعجم(١٦) :

أشـــم اذا ما جئت لمعرف طالبـــا
حباك بما تحوى عليه أناملـــــه
ولو لم يكن فى كفه غير نفسه(روحه)
لجاد بها فليتق الله ســـــائله

وهو أجود منهما معا وليس أكرم من الجود بالروح •• !
ويتعالى صوت الخنساء على كل الأصوات حين قالت فى رثائها لصـــــخر :

يعطيك ما لا تكاد النفس تسلمه من التلاد وهوب غير منـــان

فهى بتلميحها وتكنيها قد سبقت وفاقت مروان فيما أراد من معنى وأفادت ما لا يفيده قول غيرها فى وصف فقيد بالكرم أو نعى صـــفة الكرم عند فقيد ، وأى صدق وكرم أبلغ من صدقها فى قولها :

يعطيك ما لا تكاد النفس تسلمه من التلاد وهوب غـــير منان

وأى مبلغ من قولها يصل مروان فى قوله :

وما كانت تجف له حياض من المعروف مترعة ســـجالا

وبنظرة واحدة نلحظ من المفعول الأول وهو الكاف ما يفيد العموم فى العطاء ومن قوله : ما لا تكاد النفس تسلمه « كيف أنه كان يجود

---

(١٦) انظـر ٥٣ د• بدوى طبـــانة السرقات الأنجلو المصرية ٢٤٧ الحمامة الصغرى •

بانفس ما تتعلق به النفس وقولها « من التلاد » يصور مبلغ كرمه فهو يجود بما لا يجود به الاخرون ، ومن ذا الذى يعطى ما لا تكاد النفس تسلمه ، وما أبلغ ما جاءت به من انه يعطى للعطاء فعطاؤه خالص غير مصحوب بمن ... فقد ضمنت لمعروفه ولعطائه الأثر الأسمى بما وصفت به من كونه غير متبوع بمن ، ويظل ايحاء قولها مظللا ما يعن للناظر من وجوه ترفع من كرمه وأريحيته للكرم . وغاية الأمر انها قد فاقت مضمونا وايجازا وابقاء بقولها السابق عما أراد مروان بقوله :

وما كانت تجف له حياض من المعروف مترعة سجالا

مبدؤه فى الحياة

وينتقل الشاعر فى رثائه موضحا مبدؤه فى الحياة متحدثا عن المدى الذى بلغت اليه مردعته وما عنده من رحابة فكره وسمو قيمه،ان هذا المرثى له فلسفة تطيب فى كل زمان لمن كان عنده فكر ولا قيمة للمال ما لم يحقق فائدة ويؤدى هذا الى الخير ، ويعم به بغاة الخير ، ومن ذلك مواقفه مع الناس وطلاب العرف .

فهو يحمل عن المرعية من الأثقال ما يئنون من حمله ، مع كريم وفادته ... الخ .

وهذا المآثر جديرة بأن يعم الحزن عليه كما عم معروفه .

وحرى بالناس — والحالة تلك — أن يروا فى موته لهم فبكونه بثاوب ملتاعة مزقها الأنين غير أن بعض الحاقدين عليه شمتوا به سفاهة وجهلا بما كان عنده ، ولو فهموه حق الفهم لقدموا أعز ما يملكون لفدائه لو كان يجدى الفداء .

ويتمنى الشاعر أن لو مد بمعن العمر لتنهل البشر من عذب مآثره وكيف لا يتمنون له الناس ذلك وقد كان لا يكنز سوى ما يحـــقق له ولرعيته هالحياة الكريمة والرفعة وعلو الشأن والغلبة والهيبة:من سيوف الهند « وأجود الرماح » • يقول مروان بن أبى حفصة :

١٦ ــ لأبيض لا يعد المال حتى
يعـــم به بغـاة الخـــير مالا

١٧ ــ فليت الشامتين به فدوه
وليت العمــر مد له فطـــالا

١٨ ــ ولم يك كنزه ذهبا ولكن
ســـــيوف الهند والحلق المذالا

١٩ ــ وذابله من الخطى ســمرا
يرى فيهن لينـــا واعتـــدالا

وقد كان معن قدوه ، وقد نوج الشاعر كل ما ذكره له مــآثره بما يضمن له جزيل المثوبة ، اقد زينه ما مضى بفضل من التقـــوى ، ولا غرو فقد جاءت ولايته فى عهد تحققت فيه قوة الخلافة وظهــرت فيه هيبة الخلفاء واستقامت فيه أمور الحياة للولاة تحت ظلال قــوة الخلفاء ، نقرأ له ذلك فى قوله :

٢٠ ــ وذخرا من محامد باقيات وفضل تقى به التفضيل نالا(١٧)

والأبيات السابقة من بدء الفكرة (١٦ ــ ٢٠) تحمل طابع المدح الصريح ومن يقرأ هذه الأبيـــات منقطعة عن القصـــيدة ماعدا البيت السابع عشر لا يكاد يفرق بين كونه مدحا أو رثاء ولا يشير الى ذلك فى هذه المجموعة من الأبيات سوى البيت السابع عشر •

---

(١٧) الديوان ص : ٨٠ •

ولعل احساس الشاعر بما ساق من مبالغة حين عدد مناقب المرثى جعله يلجأ فى نهاية تلك الفقرة الى معيار لا يستطيع أحد أن يناله فيه بنقد اذا ما تحقق فى المرثى وهو تفضل من التقى وهو معيار المفاضلة الاســـلامى :

ويتخذ الشاعر من الموازنة بين الماضى الذى كان يزينـــه المرثى والحاضر الذى يعيشه وسيلة لاثارة الأحزان بما يسوق من صور تفصح عن بعض جوانب من الموازنة بين العهدين لقـــد تناول أمورا تتعـــلق بحياة الرعية وأمنهم ورغاهيتهم متخذا من التصوير طريقا الى مراده

ولكنه يجنح بهذه الصور بعيدا عن المباشرة ولعل فى ذلك تعريض من مروان بمن جاء بعد معن :

يقـــــول :

٢١ ــ لئن أمست رويدا قد أزيلت
جيادا كان يكره أن تذالا (١٨)

٢٢ ــ لقد كانت تصاب به ويسمو
بهـــا عقبا ويرجعهـــــا حبالى

٢٣ ــ وقد حوت النهاب وأحرزته
وقد غشيت من الموت الطـــلالا

فلقد ذهب الخير وعطلت الثغور وامتهنت الخيل بعـــد أن كانت تصاب به ويسمو بها ويعود بالغلبة والنصر والخير العميم ، ويظهر من خلال شعره احساسه القوى بذاته فى ظلال معن .

---

(١٨) الديوان ٨٠/٨١ .

ولا نكاد ننتهى من قراءة قوله :

فليت الشامتين به غدوه وليت العمر مدله فطالا

حتى نتذكر قول الخنساء حين خامرها شعور بشماتة الحـــاقدين بمصرع أخيها صخر فجعلت تقول(١٩) :

قل للذى أضـــحى به شـــامتا
انك والمـــوت معـــا فى شـــعار
هون وجـــــدى أن من سره
مصرعـــه لا حقـــــه لا تمـــار

فكلاها قد تعرض للشامتين ، ولكن مروان بن أبى حفصة حـــين تعرض لهذه الفئة لم يستطع ــ كما يبدو ــ أن يشفى النفس بحديثه فظل يتعذب بشماته الشامتين وكان له من المحيط الدينى ما يمكنه من افحامهم ورد كيدهم فى نحورهم والتخلص من الآلام النفســية التى آثارها هؤلاء عند معن وآل مروان فى آن واحد ، ولقد ضـــاعف من حسراته ومعاناته أمام عجزه أنه راح يتمنى منهم أن لوفدوه ، وشأنه فى ذلك كطالب الرحمة من الجبابرة أو ما شابه ذلك ، ومن المحال أن يتحقق مراده الا فيما بين الأحبة والا فكيف يرجو من الشـــامت أن يتمنى امتداد الأجل لمن يشمت به؟ وقد يتحقق ذلك حين يستشعر الشامت أن فى امتداد عمر من يشمت به زيادة فى شفاء نفسه • كأن ، يكون المشموت به حيرة من أمره أو ألم أو مرض مما تقر به عين الشامت ، وشيئا من ذلك لم يعنه الشاعر ، لذلك ترك ذاته تعانى العجز وتحترق ألما أمام المستحيل ••• بينما استطاعت الخنساء برفعة فكرها وحـــدة ذكائها ورحابة نظرتها أن تفحم الشامتين وترد سهامهم قوية فى نحورهم مما يشفى نفسها ويسلبها ــ تجاه هذا الأمر •

---

(١٩) الديوان ص : ٧٢ الشعار : الثوب الذى يلى الجسد ، لاتمار: لا تمارى أو تشك •

ويصدم الشامتين ويهون وقع مصابها بتلك الحقيقة التى تلمس كل يوم يرونها الناس جميعا كما يرونها الشامتون » • ولهذا كانت قوية الحجة ومنطقيتها حين نبهت هـؤلاء أنهم لا يخـرجون عن المصـير المحتوم ، فكل لاحقه لاشك ، ومن خـلال ردها على هؤلاء أظهـرت جهلهم حين ذكرتهم بأن الموت معهم وممزوج بهم لكنهم لا يشـعرون فالشامت والموت معا فى شعار •

ويذكرنا قول الخنساء بقول من قال :

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

فالخنساء أدق معالجة فى هذه القضية حين ابتعدت عن الشـماتة من جانبها بهؤلاء ، ولكنها كانت مبدعة بارعة حين وضعت أمامهم حقيقة غابت عنهم فى وقت الشماتة ـ حيث لا يجتمع الصفاء مع الكدر ـ وفى قولها ما يصدم هؤلاء ويسلبها ، وأما قول الشاعر فى البيت السـابق فقد أوضح أنهم غرقى فى غفلتهم وحـين يفيقون سيعرفون أن ذلك ، مصير مشترك وانما الشماتة ـ ان كانت ـ فلا تكون الا فيما يقـع لشخص دون آخر مما يزره عليه عمله •

وأما أبو ذؤيب الهذلى فقد انتهج نهجا حاسما حين قال(٢٢) :

وتجلدى للشامتين أريهم انى لريب الدهر لا أتضعضع

ويخاطب متمم بن نويرة الشامت فى مقتل مالك حـين مر به وهو مقتول فنعاه ، بما يعكس الشماتة فيقول(٢١) :

---

(٢٠) المفضليات ٤٢٢ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون دار المعارف ط ٤ •

(٢١) ٢٧٠ المفضليات •

فلا تفرحن يومـــا بنفسك اننى أرى الموت وقاعا على من تشجعا

ولا يخفى على ذوى الملكة ما بين هذه الأشعار من وجوه شـــبه وافتراق •

وينتقل مروان بن أبى حفصة الى الحديث عن أثر الفقـــد على ذاته ــ وهذا هو الخيط القوى فى القصيدة ــ كما يتحدث عما خلفـــه جيل معن من فراغ وأحزان مما نغص على مروان حياته وتركته نهبا للنوازل بعد أن كان يقيل عثراته ، ••• ويحس الشاعر بوجوده القوى فى ظلال التبعية ، ومن هذا المنطلق أطال الفقد ليله فصار ليالى مقرونة، ولازمته الهموم التى جاوزته الى بنيه حتى طال اشتغالهم بذلك :

يقـــول :

٢٤ ــ مضى لسبيله من كنت ترجو
به عشـــرات دهـــرك تتقـــالا

٢٥ ــ فلست بمـــالك عبرات عين
أبـــت بدموعها الا انهمـــالا

٢٦ ــ وفى الأحشاء منك غليل حزن
كحر النار يشـــتعل اشـــتعالا

٢٧ ــ كأن الليل واصل بعد معن
ليـــالى قد قرن به فطـــالا

٢٨ ــ لقد أورثتنى وبنى همـــا
وأحزانا نطيل بهـــا اشـــتغالا

وما ذكره مروان هو بعض مما ترتب من آثار بسبب فقد معن ،

وكلها تشير الى ما ظهر من خلال الرثاء من حزن على المفقود الغائب من عطاء سخى وكف قوى وتمنع بصنائع الفقيد وجاهه وذلك ما يشير اليه أبو تمام فى قوله :

واذاامرؤ أسدى اليك صنيعه من جـــاهه فكأنها من ماله

ان ما فقده من عطاء معن وجاهه جعل الشاعر يعيش فى ليل طويل عبر عنه بقوله :

كأن الليل واصل بعد معن ليالى قد قرن به فطالا

وحين نقرأ له بيته السابق تتسابق الى الأذهان أقوال الشعراء فى وصف ليل الهموم وطوله وما يضم من أمور متفرقة تقلق المهمـــومين وتلقى بهم فى يم من النـــكد والكدر ، ومن المعروف أن ليل الظـــلام لا يتغير ولكن طبيعة الانفعال وقدرته تبدلانه من الواقع العقلى فى أغلب الأحيان ليصير خاضعا للحظة النفسة التى يستقطبها من الزمن، وعندئذ تتقبع الحقيقة وتختفى تجاه ما يتراءى من أشباح وخيـــالات ، وراء الحقيقة الواضحة المسدولة .

ويكثر عنـــد هذا الحد من الانفعـــال أن تختلف معالم الأشـــياء ومعانيها من حيث منظورها العقلى وتأتلف ممتزجـــة بالوجدان الذى يخلو خالقا نفسيا يتوافر لديه من البـــواعث على اختلاف درجـــاتها وأنواعها .

وها هو ذا النابغة الذبيانى يقول واصفا ليل همه(٢٢) :

كلينى لهم يا أميمـــــة ناصب
وليـــــل أقاسيه بطىء الكواكب

---

(٢٢) ديوان النابغة الذبيانى ٤٠ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم دار المعارف .

تطـــاول حتى قلت ليس بمنقض

وليس الذى يرعى النجوم بآيب

كما قال امرؤ القيس فى هذا الجانب(٢٣) :

وليل كموج البحر أرخى سدوله

عـــلى بأنواع الهمـــوم ليبتلى

فقـــلت له لما تمطى بصـــــلبه

وأردف أعجـــــازا وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل الا انجلى

بصبح وما الاصـــباح منك بأمثل

ولكن لما كانت طبيعة الانفعال فى التجربة الشعرية عند مروان بن أبى حفصة محدودة،فلم تستطع أن تضفى على الواقع تغييرا ملموسا، فحين حاول أن يفصح عن همومه لم يلتمس لطول ليل همومه ســـوى كأنه ليال متواصلة فى اسلوب نأى به عن التكثيف والايحـــاء ، وهو معنى خال من الأختراع وعلى الرغم من تأخره عن النابغـــة الذبيانى وامؤ القيس فلم يأت بما يجعل له فضل مزية فضلا عن تقصيره عنهما فى وصف الليل ، اذا لم يكن حديه عن همومه مؤثرا ، مما جعلنا نحس بضعف الالتذاع ، بالفقد لذاته ، ويضاف الى ذلك ما أتى به من بعض الألفاظ التى قصرت بتعبيره ، وأخرجته عن دائرة جودة الســـابقين ، كاختياره ـــ مثلا للفظة « كأن » فهى تفيد ابتداء أن المشبه لا يقترب ولا يصل الى ما فى المشبه به من وجه الشبه وانما يجتمع معـــه فى

---

(٢٣) شرح ديوان امرىء القيس : ١٥١ ٠ حسن السندوبى المكتبة الثقافية بيروت ٠

شبه ما ... ، كما ضم فى حديثه عن الليل ما جعل قوله مخصوصا بمعن ، والليل عنده لا يطول عن حده ، فليل همه كأنه ليالى مقرونة فصحب ذلك طوله .

ـ ومروان حين تعرض لذكر طول الليل لم يتعرض لذكرهم أو حزن يصاحب طول ليله ولم يتخذ من التجسيم أو التصوير طريقا للتكثيف ، مما جعل حديثه أشبه بفقاعة تنتهى بسطحيتها عند معن ، ويدل على ذلك اقترابه الشديد من الواقع الذى لم يكد يؤثر فيه الانفعال تأثيرا .

وأما النابغة ـ وان فاق مروان كثيرا فى هذا الجانب ـ فهمة واحد غير متنوع ضاق ، به صدره ؛ غير أن له من الأحبة من يروح محتميا برجائها .... ؛ وتنصرف شكواه من ليله فى انه بطىء الكواكب ، وظنه أنه لن ينقضى مجرد ظن ، لكنه صور الهم الثقيل تضاعفه الليل بما يريح من هموم كانت غائبة فى النهار ـ فاذا عرفنا أنه كان عالة على امرىء القيس فى وصفه الليل ... هذا الوصف الذى أضفى عليه من التعميم ما جعله صالحا لأن يتوجه به الى كل ذى هم فى كل زمان ومكان ، وفوق ذلك تصويره الليل صاخبا عنيفا يفيض بأنواع الهموم ، وقد انفرد به حتى وقع بين مخالبة فراح يمزقه ويزهق أماله فلم يعد له مطمع فى أمل حتى فى النهار الذى كان فيه بمنأى عن الهموم ، فليل امرىء القيس صاخب بالعناء والطغيان فياض بالرعب والمجهول والرهبة ... « كما أنه يخاطب ما لا يعقل وفى ذلك دلالة على فرط الوله وشدة التحير(٢٤) :

وفى ذلك ما يؤكد أصالة التراث وقدرته على العطاء والتأثير .

---

(٢٤) انظر شرح المعلقات السبع للزوزنى ٣٩ مكتبة المعارف بيروت ط ٣ / ١٩٧٩ .

ولا يفتأ الشاعر يتحدث عن الفقد وما خلف على نفسه حتى يعود فيندر أثر ذلك ، عليه ، ويسوق هذه الصور فى حوار ، يقول فيه :

٢٩ ــ وقائله رأت جسمى ولونى
معا عن عهـــدها قلبا فحـــالا

٣٠ ــ رأت رجلا براه الحزن حتى
أضـــربه وأورثه خبـــالا

٣١ ــ أرى مروان عاد كذى نحول
من الهنـــدى قد فقد الصقالا

٣٢ ــ فقلت لها الذى أنكرت منى
لوقع مصـــيبة أنكى وعـــالا

٣٣ ــ وأيام الذون لهـــا صروف
تقـــلب بالفتى حالا فحـــالا

٣٤ ــ يرانا الناس بعد له غل دهر
أبى لجـــد ودنـــا الا اغتيـــالا

٣٥ ــ فنحن كأسهم لم يبق ريشا
لها ريب الزمـــان ولا نصـــالا

٣٦ ــ وقد كنا بحوضك ذاك نروى
ولا نرد المصردة الســـحالا

انه يصور الأثر الناجم عن فقد معن موضحا مبلغ ما ألم به من أحزان وهموم وما تركه ذلك من بصمات ، وكل ذلك فى أسلوب حوارى هو مسبوق اليه ، لقد ساق مروان قوله هذا على لسان ما اســتنكرت

عليه ما هو فيه ما انتهى اليه أمره وما يعانى من هموم انعكست على جسمه ونفسه حتى استنكرت ذلك منه مخاطبته التى لم تعهده كما كان •

ولم تقتصر أثر الانتكاسة عله وحده بل امتد الى بنيه ، ومروان حين يفصح عما غشيه وبنيه من أحزان وهموم يذوب أسى لهذا التغير السريع الذى ألم به فأحال شكله وحجمه ولونه حتى أنكرت عليه هذه المرأة التى عهدته من قبل تحوله وما لحق به من خيال •

لقد خاطبته : أراك ذا نحول فاقد الرواء وما عهدته فى هذه الهبة التى استنكرتها من قبل وهى لم تعرف كنه مصيبته فأخذ يخبرها أن ما أنكرت منه انما هو لفجع المصيبة ••• ، وأيام المنون لها حروف تقلب المرء من حال الى حال حتى صار وأبناؤه بعد فقد معن فل دهر أعمل فيه رزاياه حتى صبره كأسهم لا ريش لها ولا نصال ، وكم كان يرتوى من فيض حوضه ويسبح فى خيره ممتطيا الهناء مختالا على قسم البلهنية حتى وفاة معن •

وهذا الحوار الذى نتحدث عنه ليس بجديد فى رثاء معن ، ولكنه مطروق فى الرثاء فى الشعر العربى • ومن يقرأ فى الرثاء يرى شكلا من هذا الحوار فى بعض عيون الرثاء فى الشعر العربى ، ولكى نقف على دقة هذا الأمر فلنعد الى الأبيات من ٢٩/٣٣ نرى مروان يقرر أن ما لحق به من تعبير شمله جسما ولونا وفكرا انما هو آثر من آثار الحزن وفجع المصائب وصروف أيام المنون التى تغير كل من تجثم عليه ، ونقرأ هذه الفكرة فى رثاء أبى ذؤيب الهذلى لأبنائه الخمسة وقد فقدوا جميعا فى عام واحد حين فتك بهم الطاعون وكانوا قد هاجروا الى مصر فبكاهم جميعا بقصيدة جاء فيها :

قالت أميمـــة ما لجسمك شاحبك
منذا ابتذلت ومثل مالك ينفع(٢٥)

أم ما لجسمك لا يلائم مضـــجعا
الا أقض عليك ذاك المضـــــجع

فأجبتها أما لجســـــمى أنه
أودى بنى من البـــلاد فودعـــوا

أودى بنى وأعقبـــــونى حسرة
بعد الرقـــاد وعبرة ما تقلـــــع

فغبرت بعـــــدهم بعيش ناصب
واخـــــال أنى لاحق مســـتتبع

ولقد حرصت بأن أدافـــع عنهم
فاذا المنيـــة أقبلت لا تدفـــــع

واذا المنية أنشـــبت أظفـــارها
ألفيت كل تميمـــــة لا تنفـــع

وتجـــلوى للشـــــامتين أريهم
أنى لريب الدهـــر لا أتضعضع

ونقرأ لشاعر اسلامى ــ أيضا ــ فى مرثيته محاورة على غـــرار النحو السابق ••• انه متمم بن نويره هذا الذى لم يعرف عنه الشعر قبل مقتل أخيه مالك الذى رثاه ، بقصيدة منها هذه المحاورة(٢٦) :

---

(٢٥) المفضليات للعينى ٤٢١ تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون دار المعارف ط ٤ ، وأبو ذؤيب شاعر مخضرم ٠

(٢٦) انظر المفضليات ٢٧٨ وما بعدها ٠

تقول ابنة العمرى : مالك بعدما
أراك قديما ناعم البال أفرعـــا

فقلت لها طول الأسى اذ سألتنى
ولوعة حزن تترك الوجه أســفعا

وفقد بنى أم تداعوا فلم أكن
خلافهم أن أســـتكين وأضرعا

••• فعيدك ألا تسمعينى ملامة
ولا تنكئى جرح الفؤاد فأوجعـا

فتصرك انى قد شهدت فلم أجد
بكفى عنهم للمنيـــة مدفعـا

وفيهـا تراه زوجته وقد اقتحم الذبول حصن نضارته فأصـبح ناحلا حزينا أسدل الأسى عليه سياجا ضاربا فتتشهق والهـة والحسرة تخنق صوتها « مالك بعد ما أراك قديما ناعم البال أفرعا » •• فيذكرها بما صنعه فيه الخطب الفادح ، هذا الفقد الأليم الذى فقد به كل شىء، لقد فقد الأخ والشقيق ••• مما أورثه أسى لا ينتهى وخلف له لوعة حزن تركت وجهه أسفعا ، ويضاف الى ذلك تتابع النوازل وتسلسل ، المصائب،فَقَدْ َفقَدَ ـــ من قبل ـــ بنى أمه وهو بعد مقيم على الوفاء ودائم عليه ومن الواجب عليـــه ألا يضعف أو يستكين تجاه الأعـــداء والشامتين ، ولهذا يطلب منها أن تقصر عن ملامها حتى لا تنكىء جراح قلبه من جديد •

ولم ينس أن يؤكد لها أنه ما قصر تجاههم ، فقد جاهد فى دفع الموت عنهم لكنه لم يستطع الى ذلك سبيلا ، ولم يبق عليه بعد الا أن يعيش متجمدا القلب لا يفرحه الجديد ولا تحزنه المصيبة •

ـــ واذا أفسحنا المجال لاعمال النظر فى هذه المحاورات الثلاث فانه يتراءى لنا أن مروان بن أبى حفصة ـــ ربما كان عالة فى محاوراته على غيره من السابقين فى شكوى الشحوب والتحول وما جره له حزنه على معن ، لكنه لم يقف بنا على تجديد أو جديد فى شكواه ، اذ نراه فى أبياته التى تحتوى على هذه المضامين يشتكى على لسان رائيته الشحوب وما صحبه من سفاعة وجه ، مؤكدا قـــوله بأكثر من مؤكد وكأنه قـــد استشعر ضعف وقع قوله على المتلقين وذلك يعنى أن قوله لا يتجـــاوز درجة معينة من العاطفة ، ومن هذا التصور راح مستغرقا فى توجيـــه قولها على نواح متعددة ذاكرا من الصفات ما يكشف عن هـــذا المدى الى حد جعل قولها مكرورا •

واذا ما أردنا توضيح هذا القول بطريق آخر فاننا نقـــول : ان القصيدة من بحر الوافر وأجزاؤه «مفاعلتن مفاعلتن فعولن» فى الشطر الأول ومثلها فى الشطر الثانى والشاعر حين ذكر القائلة أوردها فى مفاعلتين من البيت الأول فى قوله « وقائلة » ثم يعلق على هذه الكلمة ذاكرا ما آل اليه حاله ـــ مما كان ينبغى أن يساق على لسانها ـــ فى بقيـــة تفعيلات الشطر الأول والثانى ويضم الى ذلك بيتا آخـــر وفى البيت الثالث يورد قولها فى بيت واحد جاء دون قول مروان كشفا واخبارا•• وبتعبير ثان نكر القائلة ثم اتبعها بصفة استغرقت قوله الذى أوضح فيه حاله فجاء تساؤلها ـــ بعد تفصيلة ـــ دون قوله ، لذا لا نكون بعيدين عن الحقيقة اذا قلنا لقد أرهق قوله قولها ، أبعده عن كشف الجديد ••• ، كما انه حين ذكر لها سبب مصيبته وأنها أنكى مما بدا عليه وكأنها لم تر كثيرا بل كانت رؤيتها قاصرة عن كشف ما يحيط به من جوانب مما حمله على تأكيد قوله حين خاطبها ، ويختم فكرته التى حملت ما كشف عنـــه من هموم بعبارات لا تزيد عن كونهـــا من باب المؤكدات المعنوية ولكنها لا تخـــرج عن كونها من آثار وقع المصـــيبة

وصروف أيام المنون التى علق عليها وجعلها ظرفا لتقلباته والنيل منه .

ـــ ونرى مروان بن أبى حفصة يجعل ما لحق به مما استنكرته عليه القائلة مما يتصل بحاسة البصر ، فقد ذكر من الكلمات « رأت » « رأت » « أرى » ولم يقف عند الجانب النفسى من قلق وغيره ، مما يجعل همومه ـــ فى ظننا ـــ ستزول بزوال المؤثر .. ، وهذا الذى ظهر عليه بعد ذلك وعرف من خلال استقراء سيرته .

واذا كان الأثر البادى على الجسم واللون هو وحده معيار التغير المستوجب للاستنكار فهذا أمر فيه نظر ، فهناك ما هو أشد قسوة ومرارة على المرء وهذا الجانب النفسى الذى لم يتناوله الا تناولا عابرا وربما لم يكن يقصده حينما علل لاستنكارها بقوله :

رأت رجلا براه الحزن حتى أضربه وأورثه خبالا

ويحسن ألا يغيب عن الأذهان أنه يرثى ولى نعمته وهو شخصية يمكن أن تتكرر أو أن يحل غيرها محلها ، وهذا ما حدث فقد نال عطاء من المهدى حين أنشده قصيدته التى يقول فيها(٢٧) :

أنى يكون وليس ذاك بكائن
لبنى البنات وراثة الأعمام

ما للنساء مع الرجال فريضة
نزلت بذلك سورة الأنعام

حمله على أن يزحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط اعجابا بما سمع ، ثم قال كم هى ؟ فقال : مائة بيت ، فأمر له بمائة

---

(٢٧) الأغانى ٩/٤٢ .

ألف درهم،فكانت أول مائة ألف درهم أطيها شاعر فى أيام بنى العباس « كما مدح جعفر بن يحى البرمكى ونال صلاته »(٢٨) •

كما مدح هارون الرشيد والهادى وغيرهم(٢٩) •

وأما الفجيعة فى الأبناء فناهيك عما تنسجه من أحزان تتضاعف بمرور الأيام ، كما أن فقد الأبناء يغتال كل هناءة فى حياة المصاب لتثبت عقارب الهم فيظل مهموما معذبا ، ولا أراك الا مستشعر ذلك من خلال شكوى أبى ذؤيب الهذلى واستنكار زوجته لما صار اليه فقد اقتحمت مأمنه قوارص الدهر وأصبح فريسة لمخالب الهم التى أورثته شحوبا ونحولا وراحت نفسه بين نهب الآلام وعصف الهموم وزاد من ضعفها امتهانه لها فى العمل وما عهدته زوجته كذلك من قبل ، اذ كان له من المال ما يحميه ويقيه هذا الابتذال والايلام ونسيت أنه يحاول عبثا ــ التخفيف من حدة هذا الاضطرام ، فقد ينسيه العمل شيئا منها ••• ، غير أن ما يريقه من جهد وما ينفقه من عرق لم ينسه من يم آلامه ، فالنفس تعانى الهم الذى يندثر معه النوم ويعلقم طعم الحياةويقض كل المضاجع وما ذلك الا بهلاك الأبناء الذين أعقبوه حسرة وعبره لا تفارقه ، فهو فى نصب لا ينقطع ، ولم يعد يسليه ظنه فى اللحاق بهم ، ويسترجع مسيرته معهم فلا يجده مقصرا فى الحرص عليهم ، لكنه العجز الذى يعترى المرء بله الأحياء أمام أحكام الله عز وجل فى المنية ، ولعل فى هذا العجز بعض السلو •

ثم يؤكد الشاعر القهر أمام الموت ، فالمنية حين تنشب أظفارها فى امرىء أو مخلوق لا تجدى معها كل التمائم •

---

(٢٨) ديوان مروان بن أبى حفصة ٢٩ تحقيق د• حسين نصار دار المعارف •

(٢٩) انظر الديوان ٥٢/٥٣ •

ـ وفى معرض الشاعر من المعانى السابقة يكشف فلسـفته التى أدت به الى ما صار فيه وهى فلسفة يحترق معها داخل المرء وخارجه فلسفة أجبرته على امتطائها محاولات التجلد ، وتتلخص فى التنـافر حين يتغلغل الحزن داخل المرء ويتجالد ظاهرا اظهارا لتجلده أمـام الشامتين والتظاهر بعدم تضعضعه بريب الدهر ، وذلك أمر لا يتكلفه المرء بيسر وسهولة •

ومن خلال ذلك نستشعر أن أبا ذؤيب الهذلى قد اسـتطاع أن يأخذ بنا الى جانبى الحزن : الحسى والنفسى مشيرا الى موقف المرء تجاه القدر والمنية من خلال امتزاج الحزن بذاته • وهنا يمكننـا أن نقول « وليست النائحة كالثكلى ••• » •

وحين نصل الى محاورة ثالثة فى العصر الاسلامى نلحظ قربا من محاورة أبى ذؤيب الهذلى مع اختلاف الفقد بينهما •• انهـا محاورة متمم بن نويرة فى مرثيته لمالك ـ والتى مر ذكر أبيات منها ـ اذ رأيناه فيها يذكر قولزوجته وسـؤالها التى استنكرت فيه ما آل اليه أمـه وتعبر فى سؤالها عن هذا التغيير بقول يحمل التعميم فى الاسـتنكار والايحاء بسوء الحالة التى أصبح عليها ، فما كان ما حدث منتظـرا لهذا الذى كان يجمع من الحسن الشىء الكبير •• فضلا عن النضارة والفراعة •• ، وفى تعبيرها بـ « مالك » ، يشعر بوضوح آثار الفقد الأليم والحزن المرير ، لكن الفقد هنا لم يكن كالسابق فى طبيعتـه ، فالقتل عنده لمالك ـ الذى هو غير قتال معن ـ ألزمه التعبير عن امتداد الحسرة والشعور الدائم بالألم والهم والاحساس تجاه قتله بالتقصير، لذا نراه يرد عليها بقوله « وطول الأسى » ••• ، ولوعة حزن تتـرك الوجـه أسفها وما انضم الى ذلك من حـديثه عن الاخـوة الآخرين « بنى أمة » ، ولم يتوقف أمر أحزانه الى هذا الحد فقد صـار عليه واجب ثقيل ولا يدرى أيستطيع القيام به أم لا ؟

ولايزال الحديث عن مالك جمرة تضطرم فى حشاياه وكفاه فلم يعد يطيق المزيد ، لذا نهرها طالبا منها ألا تنكىء جراحه •

ـــ ولكى يدفع عنه وهم تقصير متمم فى الحفاظ عليهم يوضح ما قام به من جهد ليدفع عنهم المنية لكن ذلك كان فوق الطـاقة ، وهو معنى اسلامى طالما قرأه وسمعه من القرآن الكريم •

وتعود الى مروان بن أبى حفصة فنراه بعد ذكر أحزانه وهمومه ومحاورته لاظهار ما صارت اليه حاله يؤكد بعد هذا كله أن النـاس بعد فقد معن يرونه وأبناءه فل دهر اغتال حظوظهم واقتحم حديقـة عزهم ، ويورد مروان بعضا من الصور التى تظهرهم غاية فى الضعف بعد فقد معن ••• !

وأما أكثر الجوانب أهمية فهى تلك التى امتزجت به ظاهرا وباطنا فسبحت على سطح فكره كما غاصت فى أعماقه لتتبلور فى حزنه على ذهاب هذا العطاء السـخى الذى كان يرضيه ، فقـد كان يروى من حوضـه المترع بالمعروف ، ولم يكن فى حـاجة الى ورد ، المصردة السحال لذا انتهت الفكرة بقوله :

يرانا النـاس تعدك فل دهرا
أبى لجـدودنا الا اغتيـالا

فنحن كآسهم لم يبق ريشـا
لهـا ريب الزمان ولا نصـالا

وقد كنا بحـوضك ذاك نروى
ولا نـرد المصردة السـحالا

ثم يعود الشاعر الى تفسير فكرته السابقة (الثانية) التى يتحدث فيها عن (الفقد وأثره على الناس) فى الأبيات من (١٧/٩) لكنه

يسوق هذا التفسير فى ثوب جديد وأقرب المضامين الى احتواء فكرته هو « صورة الحياة بعد معن » ... ، يقول فيها :

٣٧ ــ فلهف أبى عليك اذا العطايا
جعلن منى كواذب واعتـــلالا

٣٨ ــ ولهف أبى عليك اذا الأسارى
شكوا حلقـا بأسؤتهم ثقـالا

٣٩ ــ ولهف أبى عليك اذا اليتامى
غدوا شعثا كأن بهم ســـلالا

٤٠ ــ ولهف أبى عليك اذا المواشى
قرت جدبا تمـــات به هزالا

٤١ ــ ولهف أبى عليك لكل هيجا
لها تلقى حـواملها الســـخالا

٤٢ ــ ولهف أبى عليك اذا القوافى
لمتـــدح تها ذهبت ضـــلالا

٤٣ ــ ولهف أبى عليك لكل أمر
يقول له النجى الا احتيـــالا

ــ ونراه يتلهف متحسرا على ما أصبح فيه من حزن مديد ، وما أعظم لهفته عليـه ولهف الآخرين ، فلقد أصبحت العطايا بعـده منى كواذب،ولقد كان خير عون للأسارى مخلصا لهم،وها هم أولاء يعانون وفوق معاناتهم ثقل القيود واليتـامى ، بعده صاروا شـعثا عبث بهم المرض كأن بهم سلالا ، وقد ساق الله عز وجل فى عهده الخير الكثير ، وبعده المواشى قرت جدبا تموت به هزالا ، ويا لهفته عليه للحـرب

الشديدة تلفظ لها الحوامل السخالا ، لقد كان يقدح أوراها ويقضى على غرسانها •

ويا لهفته على المدح الضائعة والقوافى الممتهنة بعده ، ويا لهفته عليه لكل عسير من الأمور يتخبط فيه القوى وهنا وما حملته الأبيات بين نسيجها •

ـ واذا رحنا نستدعى بعضا من أقوال الخنساء التى تسير أبيات الشاعر تابعة افكرها فاننا نراها تقول فى شىء منها(٣٠) :

ياصخر من لطراد الخيل اذ وزعت
وللمطايا اذا يشددن بالكور(٣١)

وللينامى وللأضـــياف ان طرقوا
أبياتنا لفعـــال منك مخبـــور

ومن لكربة عان فى الوثاق ، ومن
يعطى الجزيل على عسر وميسور

ومن لطعنـــه حلس أو لهاتفه
يوم الصياح بفرسان مغـــاوير

وأول ما يلاحظ أن الخنساء جعلته فى القمة حين رثت فيه ضياع هذه الصفات فحين وصفته بالكرم ارتقت به الى حد لا يتحقق الا عند من الكرم سجيته ومكونا أساسيا من مكونات حياته ، فعطاؤه جزيل فى عسره ويسره ••• كما يعمم عطاؤه كل طالب ، ولا يتوقف عند المـــال بل يتعداه ليشمل العون والجاه وغيرهما فى كل مناحى الحياة ، وفوق

---

(٣٠) شرح ديوان الخنساء ٦٨ دار الحياة بيروت •
(٣١) وزعت : ردت ، الكور : ما يوضع على ظهر البعير ليركب فوقه•

هذا شعوره يصل فى كل حالة الى غايتها ، ولذا اســتغرق رثاؤها له ديوانا كاملا •

وأما من حيث الشجاعة فان مروان بن أبى حفصة « يصور معنا بصورة الشجاع فيقصر عليه الاخلاص فى الشجاعة فى الحرب التى تلقى الدوامل ما فى بطونها (سخالا) لقد كان يؤججها ويحركها وتظهر فيها شجاعته يلقحها وينتصر فيها ••• أما وقد ضاع فضاعت هذه المظاهر، ولم تعد تظهر أمثال هذه الحروب أو الشجاعة فيها ، لكن ليس ببعيد أن يظهر من الناس من هو على شــاكلته أو يبزه فى ذلك ، لذا يمكن أن يقال : ان هذا الجانب يمكن أن يسده عند الشاعر شخص غــير الفقيد • وقد كان •

بينما نرى الخنساء تصور صخرا القمة فى شجاعته فى أكثر من موضع ، واذا ما اكتفينا بالنظر فى أبياتها السابقة « من لطراد الخيل »؟ « من لكربة عان فى الوثاق » ؟ ومن لطعنة حلس أو لهاتفة غاننا نراها تصوره فى هذه النماذج وقد بلغت شجاعته حدا جعله يتصدى لهؤلاء المغاوير منجدا تلك الهاتفة التى فر عنها أقاربها وحماتها الشجعان خوفا ممن هم أشد منهم قوة وشجاعة وأكثر جمعا،ولقد فر هؤلاء الشجعان مذعورين لقوهم منذ بدء القتال ، وما كان منهم ذلك الا لأنهم ذاقوا وبال أمرهم حين عاينوا بعضا من قوة هؤلاء الفرسان وخابروها حين وقع عليهم أول الضرب فى بداية النزال ، واذا كان هؤلاء الأقوياء قد تركوا حمــاهم وأجبرهم حر السيوف على التفريط فى اعراضــهم واسلامهم هذه المرأة التى راحت تعانى عسف العيش وخشونته بعد حياة هانئة فاضت بألوان اللين وصنوف النعيم فان ذلك يصور مبلغ ما عليه الفرسان من الشجاعة والقوة والطعان •

واذا كان هذا شأن صخر تجاه من شأنهم ما نقدم غهـــل هناك شجاعة بعد ذلك ... ! نقرأ قولها(٣٢) :

ومن لطعنـــــة حلس أو لهانئة
يوم الصياح بفرسان مغـــاوير
فر الأقارب عنها بعد ما ضربوا
بالمشرفية ضربا غير تعـــزير
وأسلمت بعد نقف البيض واعتسفت
من بعد لذة عيش غير مقتور "

ـ وفوق هذه الطرق التصويرية عند الخنساء نراها تعلق صفات الشجاعة عند صخر بالجوانب الانسانية النبيلة ـ التى تثـير كوامن النفس الانسانية وتأخذ بمجامع القلوب اعجابا بما كان يصنع صخر ... ، ...وهل من اعجاب ـ عند من يمتلكون صفاء الفترة الانسانية ـ بعد اعجاب بمن يزيل كربة العانى وينزع الى تخليص المستجيرة لا يبتغى من وراء ذلك شيئا،وكيف وقد فر عنها حماة ديارها بعد مداهمة الفرسان المغاوير لهم ... ، وكلها مما يقتضى من وجـدان السامع والقـارىء المسارعة الى معايشة التجربة بوجـدانه ، هذه التجربة التى تفجـر الاحساس الممزوج بالنبل والانسانية تجاه صخر ، وكل هذا ـ فوق كونه حقيقة انعكاس بما تحسه فى نفسها تجاه صخر ، ومن هذا المنطلق يبقى الفضل كل الفضل للمبتكر والابداع على التقليد والاتباع ففضلوا الشاعر المجدد على الشاعر المقلد ،وهذا قد يعد من أحدث وجوه النظر

---

(٣٢) شرح ديوان الخنساء ٦٨/٦٩ .

الى الفن الأدبى ، وهو الذى يبحث فيه عن شخصـــية الأديب ألهذه الشخصية كيان مستقل ؟ أم أنها سارت فى طريق غيرها حتى انقطـــع بها الطريق فتلاشت وفنيت ؟ ومن ذلك أن أبا حاتم السجستانى قال للأصمعى : أبشار أشعر أم مروان بن أبى حفصة ؟ فقال بشار أشعرهما فقال : وكيف ذاك ؟ قال : لأن بشار سلك طريقا لم يسلكه أحد فانفرد به وأحسن فيه وهو أكثر فنون شعر وأقوى على التصرف،وأغزر وأكثر بديعا ومروان آخذ بمسالك الأوائل(٣٣) •

ولنعد لقراءة أبيات أخرى فجرتها اللوعة والحسرة من خـــلال صورة نادرة من صور الوفاء لشاعر تفيض تعبيراته ومضـــامينه بهذا الوفاء •

وكيف لا نعجب حين نقرأ بعض هذه القصيدة الوحيدة التى لم يقل الشاعر سواها وقد انجبت من حرقة المصيبة تبكى عـــزيزا لازم أخوه بفقده طول الأسى يقول فى بكائه لأخيه ولما كان فيـــه من كرم وشجاعة وأصالة :

لبيب أعان اللبيب منه ســـماحة
عصيباذا ما راكب الجدبأوضعا

أغر كنصل السيف يهتـــز للندى
اذا لم يجد عند امرىء السوء مطعما

وما كان وقافا اذا الخيل احجمت
أخا الحرب صدقا فى اللقاء سميدعا

---

(٣٣) دراسات فى النقد الأدبى من الجاهلية الى نهاية القرن الثالث الهجرى ط ٧ الأنجلو المصرية ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م ص ١٣٢ •

وما كان وقافا اذا الخيل أحجمت
ولا طالبا من خشيه الموت مفزعا(٣٤)

فأين قول مروان فى بكائه هذه الصفات فى مرثيته من هذه الأبيات التى يبين فيها ما يختلجه من مشاعر تجاه قتل أخيه الذى جمع من جليل الخلال وعظيم السجايا فقد كان سمحا فى أحرج الأوقات،يجمع بين عراقة الأصل والحدة والمضاء ، يهتز للندى حين يبخل الكرماء شجاع يطربه الاسراع فى مقدمة الصفوف فى خضم المعارك حين يتوقف الفرسان •• غير هياب ولا وجل من قتال أو موت •

ثم يختم مروان بن أبى حفصة مرثيته بما يكشف عن تعلقه الشديد بمعن موضحا مبلغ ما حباه الله من شجاعة واقدام حققا له من المكانة وطيب الأحدوثة لدى الخليفة ولا يكف عن الاستطراد فى ذلك مما نلمحه فى ثنايا الفكرة يقول فى فكرته :

٤٤ ــ أقمنا باليمامة اذ يئسنا
مقاما لا نريد له زيالا

٤٥ ــ وقلنا أين نرحل بعد معن
وقد ذهب النوال فلا نوالا

انه رسم صورة لحالته بعد معن قائلا : لقد أقعدنا اليأس باليمامة فلازمنا ولازمناه ، وما أردنا له زيالا ، وهل هناك مكان يرحل اليه بعد معن وينتظر فيه من الخير شىء،ليس هناك ما نرحل اليه بعد مصيبتنا الكبرى فى معن ، وقد ذهب العطاء وأصبح اعتلالا•ثم يقول :

---

(٣٤) المفضليات ص ٢٦٥/٢٧٠ تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون •

٤٦ ــ فان تذهب فرب رعال خيل
عرابس قــد كفقت بها رعــالا

٤٧ ــ وقوم قد جعلت لهم ربيعــا
وقــــوم قــد جعلت لهم نــكالا

٤٨ ــ فما شهد الوقائع منك أمضى
وأكــــرم محتــدا وأشــــد بالا

والشاعر يخاطب معنا قائلا لئن فارقت محمودا ، فطالما قدت رعال خيل لنقضى بها على رعال خيل أخرى فكففت وأصبت ، كما كنت خيرا وبركة لقومك ونكالا ووبالا على أعدائك ، كما كنت نموذجا للقائد الفذ العظيم فما وجدنا أمضى منك عزما وأكرم مثلا وأشد قلبا .

ويعود فيبين بلاءه العظيم الذى سيجعل الخليفة يذكره دائمــا بالفضل والخير ، فقد بلا غيرة من الرجال فلم يجد له مثيلا ، وستظل وقائعك التى كنت فيها وبالا على الأعداء خفاقة فى رأس الخليفــة ، ولا ينسى لك تلك الساحات التى خضت فيها معاركك الكبرى حفاظا على حرمك وأرضك والتى شق فيها على الفرسان منازلتك مهابة شــجاعتك واتقاء لبسالتك ، فيقول عن ذلك :

٤٩ ــ سيذكرك الخليفة غير قال
اذا هو فى الأمور بلا الرجــالا

٥٠ ــ ولا ينسى وقائعك اللواتى
على أعدائه جعلت وبالا .....

٥١ ــ ومعتركا شهدت به حفاظا
وقد كرهت فوارسه النــزالا ،

ويتوجه بعد ذلك مؤكدا بقاءه على العهد والوداد بعد موت معن كما كان فى حياته قائلا سأضم الى المدح التى غرست معانيها فى نفسى بعطاءك فنسجتها تاجا على رأس حياتك الحافلة من المراثى ما يكون وساما على قبرك وراية تخفق ببقاء عظمتك فيقول :

٥٢ ــ حباك أخو أمية بالمراثى وبالمدح التى قد كان قالا

ولا ينهى القول دون أن يؤكد أن الحزن والكآبة لن يفارقاه قائلا :

لقد كنت أعد العدة فى حياتك كل عام تهيأ للرحيل اليك يحدونى الأمل ويظلنى الفرح أما وقد فارقتنا فخيم على اليأس من كل جانب حتى ألقيت رحالى وآليت ألا أشد له حبالا ، ان أخا أمية :

٥٣ ــ أقام وكان نحوك كل عام
يطيل بواسط الرحل اعتقالا

٥٤ ــ وألقى رحله أسفا والى
يمينا لا يشد له حبالا

ــ ويبين لى من خلال النظر فى أبيات الفكرة السابقة قولان :
أولهما : اننا لا نكاد ننتهى من قراءة قول مروان بن أبى حفصة: حتى تتذكر أقوال من سبقوه فى هذا المعنى ، وأول من ابتدع هذا المعنى :

وقوم قد جعلت لهم ربيعا وقوم قد جعلت لهم نكالا

ــ فيما أذكر ــ هو النابغة الذبيانى ، فقد ورد فى اعتذاريته العينية قوله للنعمان بن المنذر(٣٥) :

---

(٣٥) ديوان النابغة : ٣٨ ط دار المعارف تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .

أتوعد عبـــدا لم يخنك أمـــانة
وتترك عبدا ظالما وهو ضـــالع

وأنت ربيع ينعش الناس سيبه
وسيف أعيرته المنية قاطـــع

وفى هذا المقام ــ مقام الاعتذار ــ يطيب للنابغة أن يذكر النعمان ابن المنذر موضحا فضله ، ورحمته بالناس ، وحكمته ، وهذه الحكمة لا تتوافق مع توعد الأمين وترك الخائن،فالشاعر لا ينكر على النعمان أن يتوعد بالابادة حياة من عاداه ، وانما ينبغى أن يكون كل شىء فى مكانه ، كأن الخير والانعاش منه للأولياء والهلاك كل الهلاك للأعداء.

ــ ومن ذلك أيضا اننا حين نعود الى ذى الرمة « فنقرأ له فى المدح هذا المعنى وعلى نفس البحر وزنا والروى هو الروى فى أبيات مـــروان بن أبى حفصـــة يقول ذو الرمـــة مادحا بلال بن أبى بردة الأشعرى(٣٦) :

ومجـــــد قد سموت له رفيـــع
وخصـــــم قد جعلت له خبـــالا

ومعتمـــد جعلت له ربيعـــــا
وطـــــاغية جعلت لـــه نكالا

وهنا يظهر الأثر واضحا ، فقـــد أخذ مروان بن أبى حفصـــة من ذى الرمة ، وهذا الأخذ للمعنى مع بعض الألفاظ وتغيير البعض مما يعده أبو هلال العسكرى سلخا(٣٧) .

---

(٣٦) انظر ديوان ذى الرمة .
(٣٧) السرقات الأدبية د. بدوى طبانة ٤٢ ط ٤ ، ١٣٩٥/١٩٧٥ دار الأنجلو المصرية .

واذا أفسحنا للنظر مجالا للتجوال فى هذه المعانى فاننا نجد أن مبتدعها هو النابغة الذبيانى ، وقد استخدمها بصدد الاعتذار وما تطلبه من الأخذ بترقيق القلب واستدرار عطفه رغبة فى انفراج أزمته،والنابغة الذبيانى قد ضم الى فضل السبق حسن الإستخدام بما جمع تعبيره ما حقق لهذا التعبير القوة والسمو والشمول فى معناه وجعله أقدر فى تجسيم الاكرم والعطاء وأبين فى تصوير القوة والحزم واخضاع الأعداء فالتعميم فى قوله «أنت ربيع» أضفى على كرمه بعدا لم يتحقق لدى الآخرين ، وبصدد بيان هذه الصفة التى أرادها من قوله «أنت ربيع» يراه ربيعا لا يتوقف به الوصف لاظهار الصفة عند منح الجدة للحياة لدى الأحياء ولكنه يتعدى ذلك فيؤثر فيهم شكلا ومضمونا أو فى الظاهر والباطن حتى ظهر الانعاش والأريحية على الناس •

ـ وحين تحدث عن حزمه وصرامته صوره فى القمة حيث جعله سيفا تستعيره المنية لتقيم به أحكامها على رقاب الناس •

بينما يختلف الأمر عند ذى الرمة فى الاستخدام ، فقد نقل المعنى الذى استخدمه النابغة من الاعتذار الى المدح ، وتحويل المعنى بعد أخذه يعده أبو هلال العسكرى اختلاسا(٣٨) •

كما حدد ذو الرمة المعنى فضيق دائرتها حين عين من جعل له الممدوح ربيعا ومن جعل له نكالا •

ـ واذا كان تعبير النابغة الذبيانى يصور ما أراده منه من معان بعيدة عن القيود التى تشعر بشىء من المبالغة فان تعبير ذى الرمة يوحى بأنه طارىء ، فقد كان بعد عدم،مما يشعر بحداثته وأن الممدوح ما كان كذلك من قبل •

---

(٣٨) السرقات الأدبية ٥٩ ٠

ـــ وأما مروان بن أبى حفصة فى هذا المعنى فلم يضف جـــديدا أو يحمل بيته توليدا فكان فى ذلك مقلدا بعيدا عن احداث شىء مما يضيف له القبول الحسن بالنسبة لأقوال من سبقوه فى هذا الجانب ، لذا لم يرتق الى درجة تجعل له شيئا •

والقول الثانى فهو قول مروان بن أبى حفصة :

ومعتركا شهدت به حفاظا وقد كرهت فوارسه النزالا

فأجود منه وأبدع قول متمم بن نويرة فى رثائه لأخيه اذ نراه يقـــول :

وما كان وقافا اذا الخيل أحجمت أخا الحرب صدقا فى اللقاء سميدعا

لقد رســـم متمم موقف أخيه مالك من المعارك التى يحجم عنهـــا الفرسان ويخشى نزالها الشجعان ، ولم يقصر دخولها على هدف ، انها حروب لا تتوقف عند سبب معين ولا تتوقف شدتها على كونها دفاعا عن أرض أو حمى ، فاطلاق متمم بن نويرة فى تعبيره أضـــفى ، على صفة الشجاعة عند المرثى امتدادا فلم تعد ترتبط عنده بزمن أو بهدف أو بحـــدود ، وهو فيها لا يعرف التهيب ، وحتى فى أحـــرج المواطن يلازمها ويسعد بها •

لكن مروان بن أبى حفصة قيد صفة الشجاعة فى ممـــدوحه وهى تلك الشجاعة التى كره فيها الفـــوارس النزال ، وهى لا تكون ـــ كما ذكر ـــ الا حين يدافع عن بلاده وحماه ، وهذا شعور عام ، ومنه ما يكون عند الحيوان من غريزة انه يهب للدفاع عن مسكنه وصغاره ••• فهل كانت تتكرر الشجاعة على تلك الصفة عند المرثى اذا استجير به •

كما أن متمم بن نويرة جعل من يرثيه ملازما للحروب ولاســـيما

الشديدة منهـا ، وهو الذى وصف مالكا بما يجعله فى القمة شـجاعة وكرما ... ؛ وهل ثم أشجع ممن لا يخشى الموت عند اللقاء ؟ وملحوظ فى ذلك كله أنهم كانوا قريبى عهد بأيام العرب الأولين ... وهـذه القصيدة التى رق لها جعفر بن يحيى البرمكى حين قال له(٣٩) :

أنشد مرثيتك فى معن :

وكان الناس كلهم لمعن الى أن زار حفرته عيالا

فأنشده اياها فلما فرغ من القصيدة وجعل جعفر يرسل دموعه ، فلما أسكن قال : أثابك أحد من ولده وأهله على هذه شـيئا ؟ قال : لا . قال جعفر فلو كان معن حيا ثم سمعها منك ، كم يثيبك عليهـا ؟ قال : أربعمائة دينار ، قال جعفر لكنى أظن أنه كان لا يرضى لك بذلك. وقد أمرنا لك عن معن بضعف ما قلت ، وزدنا نحن مثل ذلك،فاقبض من الخازن ألفا وستمائة دينار قبل أن تنصرف الى رحلك ، فقال مروان يذكر ذلك ويمدح جعفرا وزادها فى مرثيته لمعن :

نفحت مـكارما عن قبـر معن
لنـا ممـا تجود به سـجالا

فعجلت العطيـة يا بن يحيى
بتـأدية ولم تـرد المطـالا

فكافى عن صـدى معن جواد
بأجـود راحـة بذلت نوالا

بنى لك خـالد وأبوك يحـى
بنـاء فى المـكارم لن ينـالا

---

(٣٩) تاريخ أداب اللغة العربية ٢/٤٥ جورج زيدان .

كأن البـــرمكى بـــكل مـــال
تجـــود به يداه يفـــيد مالا

وهذا الجزاء ــ وان كان له دلالتـــه فى اعجاب جعفـــر بن يحى البرمى بها أو استجاته لها بما كان لها من صدى الى غير ذلك فان له دلالة أخرى سبق وأن ذكرناها ومفادها أن مرثيته لمعن انما هى مرثية لكرمه وجوده وهذا أمر يمكن أن يكون من غيره لذا رأيناه يقول فى مرثيته :

مضى لسبيله معن وأبقى مكارم لن تبيد ولن تنالا

وها هو ذا يقول عن جعفر بن يحى البركى بعد أن قبض منـــه ما قبض :

بنى لك خالد وأبوك يحيى بناء فى المكارم لن ينالا

ويمكن أن يقول كذلك عن ثالث ورابع الخ لكن بشرط ...

وهذا العطـــاء هو الذى جعله يزداد فى مدح معن كلمـــا زاد فى عطائه ، وكانت كثرة هذه المدح هى التى جعلت المهدى يغار منه وعنفه مرة ، وقد دخل عليه فى جملة الشعراء وأنشده قصيدة فى مدحه،فقال له المهدى : من أنت ؟ قال : شاعرك يا أمـــير المؤمنين وعبدك مروان ابن أبى حفصة فقال له المهدى ألست أنت القائل :

أقمنـــــا باليمـــامة بعـــد معن
مقـــــاما لا نريد به زوالا ...

وقلنـــــا أين نرحل بعـــد معن
وقـــد ذهب النـــوال فلا نوالا

وقد ذهب النوال كما زعمت فلم جئت تطلب نوالنا ؟ لا شيء لك عندنا « جروا برجله » فجروه برجله حتى أخرج فلما كان من العام المقبل تلطف حتى دخل مع الشـــعراء ــ وكانت الشـــعراء تدخل على الخلفاء في كل عام مرة ــ فمثل بين يديه وأنشد قصيدة فى مدحه حتى بلغ الى قوله :

هل تطمسون من الســـماء نجومها
بأكفكم أو تســـترون هـــلالها

أو تجحدون مقـــالة من ربكم
جبـــريل بلغها النبى فقـــالها

شـــهدت من الأنفـــال آخر آية
بتـــراثهم فأردتم ابطـــالها

فطرب المهدى وسأل عن القصيدة كم هى ، فقيل له مائة بيت ، فأمر له عن كل بيت بألف درهم ، فنال مائة ألف درهم وهذه أول مرة نال فيها شاعر هذه العطية ، ونال كذلك من الرشيد ... ، ولم ينـــل أحد من شعراء هذا العصر ما ناله مروان بشـــعره فلقد جمع مالا كثيرا لكنه كان مطبوعا على البخل(٤٠) .

فهذه الأخبار تؤكد صحة ما ارتأيناه من آراء نحو حبه الشديد للمال وهو الدافع للمدح ، ومن هنا كان فى مرثيته يبكى الكرم والجود وحياة البلهنية التى كان يظن أنهـــا مضت بمضى ، معن لطـــلاب المال من الشعراء طرق .

---

(٤٠) تاريخ آداب اللغة العربية ٣٨٢ .

أبيات أخرى لمروان فى رثاء معن

ان من يتابع قراءة ديوان مروان بن أبى حفصة يقف له على بقية أبيات من الشعر قالها فى رثائه لمعن ، وهى مقطوعة من ثلاثة أبيـات وقصيدة أخرى نسبت له ولغيره بعض أبياتها ولم يخلص له منها سوى أربعة أبيات وعدد أبيات القصيدة ست عشر بيتا • أما المقطوعة فيقول فيهـا(١) :

يا من بمطلع شمس ثم مغـربها
ان السخاء عليكم غـير مردود

قل للعفاة أريحوا العيس من طلب
ما بعد معن حليف الجو من جود

قل للمنيـة لا تبقى على أحـد
اذ مات معن فما ميت بمفقـود

وفيها ينعى الجود ويبكى السخاء الذى كان أساسا من مكونات حياتهم يلازمهم ولا ينصرف عنهم أما وقد ذهب معن فذهب السخاء ، ويتوجه الشاعر الى العفاة طالبا منهم أن يحطوا رحالهم وينصرفوا عن التفكير فى العطاء ، فقد رحل الجود برحيل معن ، ولقد ذهبت طيبات الحياة ونعيمها مما جعله يتمنى ألا تبقى المنية على أحد بعـد أن أتت على معن فما ميت بعده بمفقود •

وهذه معان ترقى بمعن الى حد بعيد وتصوره مثلا فى الجود ، ولعل تركيز فكر الشاعر فى هذه الأبيات الثلاثة جعله يصـل الى مدى

---

(١) انظر الديوان ص : ٤٠ تحقيق د• حسين عطوان دار المعارف وراجع ديوان الخنساء فهذه المعانى موجودة فى ص : ١١٤ تحت عنوان « وأورثتنى حزنا » •

أبعد وأرحب مما فى قصيدة الرثاء وان كان الدافع الحقيقى هو السير وراء بريق العطاء •

وأما القصيدة التى لم يكن نسب أبياتها الخ خالصا فقل نسبت له ولغيره نسبها الكثير من القدامى لحسين بن مطير الأسدى ولم يخلص له من نسبتها سوى الأربعة أبيات الأولى : ولعل من المفيد أن نقرأها فى جملة من أبيات القصيدة يقول فيها :

لندبك أحـــزان وسابق عبـــرة
أثرن دما من داخل الجوف منقعا

تجرعتها من بعـــــد معن بموته
لأعظم منها ما احتسى وتجرعهـــا

ومن عجب أن بت بالرزء ثـــاويا
وبت بما خـــولتنى متمتعـــــا

ولو اننى أنصـــفتك الود لم أبت
خلافك حتى تنطوى فى الردى معا

من القصيدة :

فيا قبـــر معن أنت أول حفـــرة
من الأرض خطت للسماحة مضجعا

ويا قبر معن كيف واريت جودة
وقد كان منه البر والبحر مترعا

بلى قد وسمعت الجود والجود ميت
ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا(٢)

---

(٢) انظر هذه الأبيات ١١٤/١١٥ •

ولما مضى معن الجـــود وانقضى
وأصـــبح عرنين المكارم أجدعا

وهو فى هذه الأبيات لم يجتز آفاق المرثاء فى التراث العربى بل ظل يهيم هنا وهناك ، بين ناظر وآخذ يندب معنا بعبرات حارة وأحزان شديدة تثير همومه وتوضح مدى ما يتجرعه ويحتسيه بسبب الفقـــد الأليـــم ، ويذكر مروان أنه لو أنصف فى وداده لمعن لما بات بعـــده الا منطويا فى الردى ، ويعجب من هذا القبر الذى كان أول حفـــرة ضمت السماحة ووارى جود معن ، وكيف احتواه هذا المكان الضـــيق وكان يفيض البر والبحر من جودة ، وما وسعة القبر الا ميتا ، ولو كان حيا لصعق منه وتصدع •

وبمضى معن مضى الجود وجدع بعرنين المكارم ، وهكذا تشـــمل بكاء الكرم فى معن مساحة طويلة وقد خسر من حاول مباراته •• الخ•

وهذه المعانى التى تضمنتها الأبيات والمرثية تكاد تبلغ حدا من الجودة يقربها من مصاف الشوارد فى هذا المجال •

ولكن مادمنا قد ذكرنا الشـــوارد فيجدر بنا أن نشـــير الى أن ذكر الشاعر للجـــود ومعن والقبر وما صـــحب ذلك من تكرار للتعجب ولبعض المعانى سواء كان على وجه التأكيد أو غيره استطاعت الخنساء أن تجمع ذلك فى بيت واحد وبابداع حين تحدثت عن القبر وما ضم من كرم وغيره من أخلاق طاهرة عفيفه تقول(٣) :

يا صخر ماذا يوارى القبر من كرم ومن خلائق عفات مطاهير

---

(٣) شرح ديوان الخنساء منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ٦٩ •

بين الرثاء والمدح

ان من يتأمل فى ديوان مروان بن أبى حفصة ويقف عند الرثاء والمدح يراه قد استمد كل معانى رثائه لمعن من مدائحه له ، واستقاها من هذه الغرر التى ترف فى مدحه له ، لكن مدائحه لمعن فاقت فى جـودتها وتصـويرها مرثيتـه له ، والذى يسـتعرض مدحـه ومراثيه يقف على ذلك بوضوح تام ومن ذلك قوله فى وصفه بالكرم مادحا(٤) :

الى المجتدى معن تخطت ركابنا تنائف فيما بينها الريح تلغب

وما ذلك الا لأنه حصن حصين للمحتاجين وغاية •

ـ وقوله(٥) :

الى باب معن ينتهى كل راغب يرجى الندى أو خائفا يترقب

فالحماية لهؤلاء من العذر ، والاغداق على الآخرين من كـرمه وجاهه •

وقـوله :

قال للجواد الذى يسعى ليدركه أقصر فما لك الا الصوت والطلب(٦)

وهو بيت قال عنه أبو هلال فى ديوان المعانى ١/٥٢ قـوله : فمالك الا الفوت والطلب من أحسن معنى وأجوده وأبينه بيانا وأشده اختصارا •

---

(٤) المجتدى : المسئول ، تنائف : قفار ، تلغب : تتعب ، الديوان ص : ١٦ •

(٥) الديوان ١٧ •

(٦) الديوان ٢٠ ولفظه تجيد مضمومة فى الديوان ولعل هذا خطأ مطبعى وانظر الديوان ٦٤ •

ومن ذلك قوله(٧) :

لا تعدموا راحتى معن فانهمـــا
بالجود أفتتنا يحيى بن منصـــور

لما رأى راحتى معنى تدفقنـــا
بنائل من عطـــاء غير منزور

ألقى المسوح التى قد كان يلبسها
وظل للشعر ذا رصف وتحبـــير

فالحديث عن الكرم يمجد فيه مروان راحتيه فمنهما يتدفق العطاء، والشاعر فى حديثه عن كرمه فى الأبيات السابقة يتخذ من الاســلوب القصصى لاثبات ما أراد من صفة الكرم على نحو خاص •

ونقرأ له كذلك من المعانى التى يتناول فيها الجوانب الدينية من التقوى والخلق قوله(٨) :

كنز المحامد والتقوى دفاتره وليس من كنزه الأوراق والذهب

وفى الأخلاق نقرأ له(٩) :

مرفق لسبيل الرشد متبع يزينه كل ما يأتى ويجتنب

وهو ذو قيم ثابتة لا ينال منها الزمان فهو :

له خلائق بيض لا يغـيرها صرف الزمان كما لا يصدأ الذهب

كما أنه يحرص على المحامد وبقائها فهو(١٠) •

---

(٧) الديوان ٥٧ •
(٨) الديوان ٢٠ •
(٩) الديوان ٢١ •
(١٠) الديوان ١٠٩ •

يرى العطايا الى تبقى محامدها غنما اذا عدها المعطى من الغبن

المبالغات فى رثائه وشعره

ـــ انه من خلال استعراض الرثاء عند مروان ابن أبى حفصـــة تتراءى المبالغات الظاهرية ، التى تستوقف القارىء لأنه يصل بالمرثى من خلال وصفه بهذه الصفات ـــ الى درجة لا يرقى اليها أحد فضـــلا عن كونها لا تدرك .

ومن ذلك قوله :

وأظلمت العراق وأورثتها مصيبته المجللة اختلالا

فالمصيبة أظلمت العراق وأصابته بالاختلال ، وارتجفت جـــوانب الشـــام :

وظل الشام يرجف جانباه لركن العز حين وهى فمالا

ـــ كما علا البلاد خشوع يوم وفائه (البيت رقم ٨) وكان الناس كلهم عيالا له (١٠) ، ولم يذهب طالب للعرف الى غيره (١١) ، كما كان يحمل كل ثقل (١٢) ، وما عمد الوفود لمثـله (١٣) ولا بلغت أكف ذوى الكرم يمينه أو شماله (١٤) وغـــير ذلك من الأبيـــات المنثورة فى قصيدة الرثاء .

ولم تكن هذه المبالغات قاصرة على رثائه ولكنها شاعت فى مدحه، وما كان من المبالغة فى مرثيته وغيرها من أبيات الرثاء انما هو مستمد من هذه المدح ولعل من المناسب أن نورد أمثلة لهذه المبالغات فى مدحه وقصائده ليتضح للقارىء مدى ما ضمت هذه المدح من مبالغات ظهرت بعد فى مرثيته ، ومن يطالع ديوانه يجد من ذلك المثير ومنه وصفه لمن

بالكرم ــ فى مدحه ــ الى حد يستحيل وجوده على الصــورة التى أثنتها لمعن يقول ص (٦٣) •

وما الغيث اذا عم البلاد بصوبه على الناس من معروف معن بأوسعا

وذلك ممتنع عقلا وعادة ، ومن ذلك قوله ص ٦٤ :

له راحتان الحتف والجود فيهما أبى الله الا أن تضر وتنفعــا

كما يقول ص ٦٨ :

نحن قلوصى نحو صــنعاء اذ رأت سماء الحيا من نحو صنعاء تبرق

وحين ننتهى الى الشجاعة والخشية نرى كثيرا من المعانى التى شاعت فى مدائحه وظهرت أيضا فى مراثيه بصورة أو بأخرى •

نراه يقول فى ص (١٧) من الديوان :

محالف صولات تميت ونائل بريش فما ينفك يرجى ويرهب

وهو القائل فى رثائه :

وقوم قد جعلت لهم ربيعا وقوم قد جعلت لهم نكالا

واليك أمثلة من مبالغاته فى المعانى التى وصف بها معنا • يقول ص (٤٤) :

ما من عدو يرى معنا بســاحته
الا يظن المنــــايا تسبق القدرا

يلقى اذا الخيل لم تقدم فوارسها
كالليث يزأر اقداما اذا زجــــرا

أغر يحسب يوم الروع ذا لبيـــد
وردا ويحسب فوق المنبر القمـــرا

كما يقول ص (٦٤) :

وما أحجـــم الأعداء عنك بقيـــة عليك ولكن لم يروا فيك مطمعا

واقرأ قوله عن معن .

لقد أصبحت فى كل شرق ومغرب بسيفك أعناق المريبين خضعا

فالمبالغة ظاهرة فى شعره من مدح ورثاء ، ولعل مما يتصل بجوانب البحث محاولة التماس الأسباب التى ادت الى ذيوعها بشكل واضح فى هذا العصر وعند الشاعر •

ـــ لقد ضم الشعر العربى ـــ قبل عصر مروان الذى ذاع فيـــه شعره بعض المبالغات المقبولة لكنها نادرة ، كما حرص الشـــعراء فى عصر صدر الاسلام على تعاليم الدين ومن ضمنها القصد فى القـــول وعدم الغلو فيه(٥١) •

كما وجد فى العصر الأموى كثير من هذه المبالغات المقبولة لاقترانها بما يقربها الى الصحة(١٢) أو لتضمنها نوعا حسنا من التخيل وذلك خلاف المبالغة فى الشعر العباسى(١٣) اذ لم نجد فى الشعر الاسلامى أو الأموى من يجعل من الممدوح نظير الله سبحانه وتعالى •

ـــ ومما يذكر من أسباب شيوع المبالغة فى العصر العباسى الزندقة والالحاد : « ذلك أن المبالغة كثيرا ما تخرج عن نطاق الدين،والزندقة والالحاد انما هما نتيجة الخروج عن هذا النطاق »(١٤) •

---

(١١) المبالغة فى الشعر العباسى ٤٤ •
(١٢) الســابق ٤٥ •
(١٣) الســابق ٤٦ •
(١٤) الســابق ٥٧ •

ـــ ومن ذلك مشاركة الموالى فى نظم الشـــعر(١٥) ••• ، ومن أسباب انتشار المبالغة فى الشعر العباسى اغداق الخلفاء والولاة على الشعراء ، وقولهم لهذه المبالغات « نتيجـــة لحبهم العظمة والجـــلال وحرصهم على أن يظهروا أمام الناس بمظهر الكمال ••• »(١٦) •

ومن الأسباب التى أدت الى ظهور المبالغة فى الشعر العباسى على نحو معين : التنافس الذى وجد بين الوزراء والولاة فقد «أخذ هؤلاء ينافسون الخلفاء فى عطاياهم فمدح مروان بن أبى حفصـــة معن بن زائدة الشيبانى ، ومن هنا أخس الشعراء « أن صاحب الخطـــوة لدى السلطان هو من يرفعه الى منزلة لا يرقى اليها أحد »(١٧) •

وأما الرثاء فلم يخل من مبالغات الشعراء وكأنما الميت يسمعهم فهم يحاولون أن يصوروه بتعظيم مناقبة وتعدادها متخذين من المبالغة وسيلتهم الى ذلك •

ونحن نعلم أن الرثاء فى كثير من جوانبه نوع من المدح مما حمل بعض النقاد كقدامة بن جعفر على عدم التفريق بينهما الا أن أحدهما للحى والآخر للميت ، وكان الشعراء كثيرا ما يتخذون من تصوير هول المصاب بالفقيد وسيلة الى رثائه ، ولذلك يبالغون فى تصوير ذلك الى درجة كبيرة(١٨) •

---

(١٥) الســابق ٥٨ •
(١٦) الســابق ٦٧ •
(١٧) الســابق ٧٣ •
(١٨) الســابق : ١٤٩ •

التكرار فى مرثية مروان بن أبى حفصة

من يقرأ رثاء مروان بن أبى حفصة يلمس فيه تكرار على نحو معين ، مما يدعو الى النظر ويدفع الى البحث •

ولم يكن مروان بدعا فى ذلك ، فمن يقرأ ديوان الخنساء ــ مثلا ــ يلمس هذا التكرار ومن ذلك نجد فى رثاء متمم بن نويرة،واذا أردنا أن نمثل لذلك من ديوان الخنساء تجد قولها ص ٤٩ من الديوان :

تبكى لصخر العبرى وقد ولهت
ودونه من جديد الترب أستار

تبكى خناس على صخر وحق لها
اذ رابها الدهر،ان الدهر ضرار

كما تقول فى نفس القصيدة :

وان صخر لوالينا وسيدنا

وان صخرا اذا نشتو لنحار
وان صخرا لمقدام اذا ركبوا

وان صخر اذا جاعوا لعقار
وان صخرا لتأتم الهداة به

كأنه علم فى رأسه نار

وتقول ص (٢١) تحت عنوان لهفى على صخر ، والتكرار فيه مما يتعلق ببنية القصيدة :

لهفى على صخر فانى أرى له
نوافل من معروفة قد تولت

ولهفي على صخر لقد كان عصمة
لمولاه ان نعـــل بمولاه زلت

ومن التكرار ما جاء فى قولها ص ١٠٢ :

يا لهفى نفسى على صخر وقد لهفت
وهـــل يردن خبـــل القلب تلهيفى

أبكى أخاك اذا جاورتهم سحـــرا
جودى عليـــه بدمع غير منـــزوف

أبكى المهين تـــلاد المـــال ان نزلت
شهباء ترزح بالقوم المتـــاريف(١)

والتكرار عند الخنساء يصور حرقة الفراق ومرارة الحزن ، ومنه ما يتعلق ببناء القصيدة ، ومنه تكرار التقسيم بما سنذكره فى الصفحات التالية وهو كثير فى شعرها ومن أيضا التكرار اللاشـــعورى وهو الذى يجئ فى سياق شعورى كثيف يبلـــغ أحيانا درجة المأســـاة ومن ثم فالعبارة المكرورة تؤدى الى رفع مستوى الشعور فى القصـــيدة الى درجة غير عادية(٢) .

— ونحن اذا استرجعنا أبيات الرثاء عند مروان بن أبى حفصة والتى ظهر فيها التكرار فاننا نراه يقول :

٣٧ ـ فلهف أبى عليك اذا المعطايا
جعلن منى كواذب واعتـــلالا

---

(١) المتاريف : جمع متراف : وهو من أبطرته النعمة .
(٢) انظر قضايا الشعر المعاصر نازك الملائكة مكتبة النهضـــة بغداد ط ١٩٦٥/٢ ص : ٢٥٣ .

٣٨ ــ ولهف أبى عليك اذا الأسارى
شـــكوا حلقا بأسوقهم ثقـــالا

٣٩ ــ ولهف أبى عليك اذا اليتامى
غدوا شعثا كأن بهم ســـلالا

ويتكرر ذلك فى الأبيات ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ مما يمكن الرجوع اليه فى الصفحات السابقة ، غير أن تلهف الشاعر هنا مقرون بالسبب الذى تطفو فيه المنفعة عـلى كل شىء ، اذ نراه يعلل تلهفه بضـياع العطاء ، وهذا جانب يقتصر عليه وعلى أمثـاله ممن كانوا يمدحـون الشاعر ، ثم يعرج على أثره متخذا منه علة لتكرار التلهف ، فالأحوال قد تردت وظهر أثر ذلك فيمن هم أحوج الى رعايته ، ويستعرض من الرعية نماذج مذقتهم الآلام ونهشتم الأمراض ، وقد نكبوا بموته،كما كان موته نكبة حتى للحيوان وخلاصة القول أنه يصف معنا من خلال تلهفاته بالكرم والعدل والرحمة والمروءة والشجاعة ، وما هاله وأحزانه وأقلق عليه أمنه وأفسد عليه حياته انما هو ضياع ما كان ، ينعم به من عطاء وكرم فى ظلال معن •

ــ وتكرار التلهف عند مروان انما ينم عن الحيرة والتحسر وشدة التفجع ، كما أن اللهفة كانت وراء ضياع صفة كانت حية بحياة معن، تلهف على العطايا التى أصبحت منى كواذب ، وتلهف على ذهاب العدل وضـياع الجـوادين ، وتلهف عـلى شكوى الأسـارى وتلهف على عبث الزمـان باليتامى لما مضى معن فغدوا وكأن بهم ســلالا وتلهف على الضياع الذى شمل كل شىء حتى الحيوان بفقد معن ، وتلهف على الحروب المستعرة بقيمها فيبدؤها وينهيها ، ويتلهف على ضياع الشعراء بعـد رحيل معن ، كمـا يتلهف عـلى كل الأمـور التى تتطلع الى من يبدد ظلامها •

وكل هذه التلهفات التى تصور الحسرة والأحزان بوسائل التكثيف يمكن أن تتلاشى مع الزمن اذا حل غير معن محله وسد هذه الجوانب التى صارت مأملا لمروان ومرتجى له •

أما التكرار والتلهفات عند الخنساء قد تعلقت بأمور لا يمكن أن تتحقق فى غياب صخر وهذا ما يمكن أن يلحظ من خلال معاودة قراة بعض الأبيات التى تحمل صورا من هذه التكـرارات • لذا نرى أن تلهفاتها باقية ما بقيت •• ، كما أن تلهفاتها تتعلق تعلقا مباشرا ببناء القصيدة لارتباطه بالسياق ، وما بعده لقى عناية الشـاعر الكاملة(٣) ولو حذف ينهار من المعانى الأساسية فى القصيدة الكثير •

ولهذا نرى أن التكرار فى مرثية مروان له علاقة كبيرة ومتصلة بظروف الشاعر النفسية ، فالتكرار يثير الحزن بضياع الأحبة ومن عمهم كرم معن فعاشوا فى كنفه يوم أن كان حيا • وأما من حيث دلالـة التكرار فيمكن على ضـوء ما ذكرته « نازك الملائكة »(٤) أن نستنتج ما يمكن وراءه من الحاح على جهة هامة فى العبارة يعنى بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها •

ويكشف هذا التكرار اهتمام المتكلم بها ، وهذا يعنى أن للتكرار دلالة نفسية قيمة تفيد الناقد الأدبى الذى يدرس الأثر ويحال نفس كاتبه ، وهو بذل كأحد الأضواء اللاشعورية التى يسلطها الشعر على أعماق الشاعر فيضيئها بحيث تطلع عليها(٥) •

كما تضيف المؤلفة موضحة أن ثانى قاعدة نستخلصها — «وهى أن التكرار يخضع للقوانين الخفية التى تتحكم فى العبارة وأحدها قانون

---

(٣) السـابق : ٢٣٣ •
(٤) السـابق : ٢٤٢ •
(٥) السـابق ٢٤٣ •

التوازن ، ففى كل عبارة طبيعية نوع من التوازن الدقيق الخفى الذى ينبغى أن يحافظ عليه الشاعر فى الحالات كلها •

ان للعبارة الموزونة كيانا ومركز ثقل وأطرافا ، وهى تخضع لنوع من الهندسة اللفظية الدقيقة التى لابد للشاعر أن يعيها وهو يدخل التكرار فى بعض مناطقها (٦) •

وما يمكن التماسه من أهداف مروان بن أبى حفصة فى تكراره فى مرثيته أنه « يؤدى وظيفة افتتاح المقطوعة ويدقه الجرس مؤذنا بتفريع جديد للمعنى الأساسى الذى تقوم عليه القصيدة(٧) وهو ما تطلق عليه « نازك الملائكة » تكرار التقسيم ، •• وأحيانا يستند الشاعر الى هذا التكرار ليستغنى عن عناء الافصاح المباشر واخبار القارىء ، بالألفاظ عن مدى كثافة الذروة العاطفية(٨) ، وهذا ما يمكن أن يدل عليه تكرار مروان فى مرثيته لمعن ، ونلمس ذلك فى قوله :

مضى لسبيله معن وأبقى مكارم لن تبيد وان تنالا

فى البيت الأول • وقوله فى البيت الثامن :

مضى من كان يحمل كل ثقل ويسبق فضل نائله السؤالا

وبعد •

فبعد هذه الجولة فى رثاء مروان بن أبى حفصة يمكننا أن نوجز ما يلى مما كشفنا عنه فى البحث •

---

(٦) السابق ٢٤٤ •
(٧) السابق ٢٥٠ •
(٨) السابق ٢٥٣ بتصرف •

أولا : روافد الرثاء عنده :

الناظر فى رثاء معن يرى أنه لم يكن منفردا فيه من حيث الصور فضلا عن كونه لم يكن بدعا لا فى معانى رثائه فقد كان التراث مصدرا لمراثية على نحو ما أوضحت فى البحث •

ويضيف الى ذلك ما أوحت به المواقف من خلال علاقاته بمن رثاهم على النحو الذى تحدثت عنه فى ثنايا البحث •

ثانيا : الجوانب الخلقية والدينية :

ضم الرثاء كثيرا من الجوانب الخلقية مما مدح به الخلفاء والولاة وغيرهم من الكرم والرحمة والعدل والشجاعة غير أن الشاعر يذكر الصفة أحيانا ويتحدث عن درجتها متخذا من الموازنة طريقا يظهر به فضل المرثى، كما عرج على المعيار السامى فى المفاضلة — وهو التقوى على حد قول الله تعالى « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » نرى ذلك فى جوانب متعددة ومنها قوله : « وفضل تقى به التفضيل نالا » ويضاف الى ذلك نظرته الى المال وأوامر الله تعالى وهذه الأشياء المستقاة من الشريعة الإسلامية توج بها الشاعر مرثيته ليرف فيها الجانب الاسلامى ومن ذكره لهذا الجانب ما تناوله حين تحدث عن آثار فقده على كثير من النماذج الانسانية حتى الحيوان ••• الخ •

ثالثا : الجانب القيادى :

وحين تحدث عن المآثر أضاف اليها الجانب التقليدى •

فالمرثى حرص دائما على اظهار فضائله وحسن ما كان له فى الجانب القيادى حيث لا يرى للمال فضلا الا بأثره ولا يكنز ذهبا وانما يرى محققا قول الله تعالى « وأعدوا لهم ما أستطعتم من قوة ومن رباط

الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ومن هذا المنطلق كان يشـــعل الحروب يبدؤها وينهيها ويحقق فيها ما لم يحقق أحد الخ فهو يضم الى نظرته الثاقبة حكمة القيادة •

رابعا : الموازنة :

يسبح على فكر الشاعر الكثير من الشعر العربى مما ظهـــر أثره فى رثائه وعلى رأسهم الخنساء ومتمم بن نويرة وأبو ذؤيب الهـــذلى ووضحت مدى ما أوحت به أبياته مما أخذ وتأثر به من أشعار هؤلاء •

وأدعو الله أن ينفع بالبحث وأن يسددنا على طريق العلم والله المستعان •

دكتور / محمد على داود